عنيف حتى الان. ويرى بعض المسؤولين في الحكومة بان ندرة وجود دليل مؤكد اشارة على الاستعداد للقيام بنشاطات مسلحة محلية. وقال مسؤول رفيع المستوى: "لم تقع اعمال ارهابية بعد، لكن الحزب يخزن الاسلحة، هناك حقائق "...

ومن الصعب ان يوجد احد في الاجهزة الامنية يعتقد بحق بان حزب التحرير حركة مسلحة، رغم ان المسؤولين الحكوميين يسرعون دائما للاشارة اليه او الى حركة اوزبكستان الإسلامية، كلما وقع عمل اجرامي. ويوافق معظم مسؤولي الامن القرغيز الذين اجرت جماعة الازمة الدولية مقابلات معهم على انه لا ينطلق من الحزب أي خطر امني مباشر.

ومع ذلك، ونظرا لغموض الالتزام الايديولوجي لحزب التحرير بعدم اللجوء الى العنف، سيكون من الغريب عدم وجود معارضة عند بعض الاعضاء، ان معظمهم يسيرون وفق خط الحزب في المقابلات، ويصرون على معارضتهم للعنف، وهناك سبب ضعيف للشك في صدقهم. ولكن يوجد احيانا شعور بان البعض محبط من سياسة عدم العنف. وقد تحدث احد اعضاء الحزب في اوش عن الشرطة البغيضة:"الكل يقول اننا متطرفون. ولكن لو كنا متطرفيهم لاقدمنا على دفنهم (الشرطة) وهم احياء". وكان يبدو عليه الثقة وهو يتحدث.

كان عدم الرضا عن سياسة اللاعنف موجودا بالتاكيد عند بعض الاعضاء الذين هربوا الى افغانستان. من بين التوثيق الضخم الذي وجد في بقايا معسكر لحركة اوزبكستان الإسلامية، كانت توجد مذكرة قصيرة كتبها عضو سابق في حزب التحرير من اوزبكستان كان قد هرب عام ١٩٩٩ وانتهى به الامر مع الحركة المذكورة. وقد نددت المذكرة بشدة بعدم لجوء حزب التحرير الى العنف، مدعية بان الحزب كان "يلقي في النار الكثير من الشباب المسلم الكفؤ"، والذي كان يمكن ان يكون كل واحد منه "مقاتلا مخلصا وقديرا في سبيل الاسلام :"

او مرتين سنويا. فمثلا: قدمنا في عيد الاضحى الماضي طبق "بلوف" (من الرز واللحم) لجميع السجناء؛ طبخنا ٣٥ كيلو غراما. وفي عيد الاضحى الحالي، قدمنا كعكة لكل زنزانة. وارسلنا لافراد حزبنا حزما، مرة او مرتين في الشهر ".

وفي اوزبكستان يصعب القيام بهذه الاعمال، ولكن يمكن استخدام شبكة دعم النساء للقيام بتسليم الهدايا. ويدعي الكثير من الاعضاء بانهم نجحوا داخل السجن في هداية المجرمين العاديين للاسلام، ولكن المعلومات الموثقة قليلة.

وهذا التوجه يبدو كذلك بانه انحراف الى حد ما عن الخط العام للحزب، الذي يدعي بانه يجب ان تكون هناك فقط جوائز "معنوية" للذين يعانون في سبيل القضية. ويعتبر الشعور بالتضامن الممثل بمساعدة السجناء جزءا هاما من الاسلوب الذي يجذب له الحزب الاعضاء الجدد، ويحافظ به على الاعضاء الموجودين في آسيا الوسطى، ولكنه يبدو قاصرا على المنطقة.

٤- **العنف؟** :يعتبر مجال نشاط حزب التحرير في آسيا الوسطى محدودا بشكل عام. ونظرا لانه مجبر على العمل السري فانه يستطيع عمل القليل لمخاطبة الجمهور. والمنشورات تصل الى اعداد قليلة. ومن بعض الطرق، يشكل ذلك ميزة للحزب: فلو كان هناك نظام سياسي مفتوح غير مقيد، فان احتمال الفشل في جذب الجماهير، مثلما يشاهد في جاكرتا، للقيام بمسيرات او مظاهرات، سيظهر بان هناك دعما جماهيريا محدودا لاراء الحزب وافكاره. ولكنه بينما يظل سريا، فانه يمكن ان يقنع نفسه بسهولة بان "الخلافة" قريبة المنال.

ولكن من الواضح وجود خطر من تعاظم الاحباط داخل الحزب اذا لم يتمكن من التاثير على النظام السياسي. ويشير القادة الى انه رغم وجود الاضطهاد الشديد الذي واجهه الاعضاء، لم يخدث لجوء الى العنف. والواقع انه لم تقع حادثة مؤكدة لاشتراك حزب التحرير في أي عمل ارهابي او اعمال عنف في آسيا الوسطى، ولم تثبت صحة أي اتهام لمصادمات مسلحة او نشاط

والعشرين من العمر، في سوق "تورشو" بسبب توزيعه لمنشورات حزب الله. بدأت الشرطة تضربه امام الجمهور. وحذرت الشرطة أي شخص يتدخل بان يواجه هو كذلك المتاعب ولكن المذهل ان الشاب ظل هادئا وظل يهتف باستمرار "الله اكبر". وتمكن كذلك من الجهر بقول يبدو كانما يرتله ترتيلا: "استيقظوا ايها الاخوان اخلعوا هذا اليهودي الكافر كريموف وانتخبوا خليفة من بينكم ".

ويفسر الاعضاء في الحزب هذا النوع من السلوك على انه شكل من اشكال الشهادة، ولكن ليس من الواضح اذا ما كانت تلك سياسة محددة ام خيارا شخصيا. ولكن لم تقع حالات لانتحاريين او اشكال اخرى من الشهادة عن طريق العنف بين اعضاء الحزب، وهناك احتمال ضئيل في ان يتحول الحزب لذلك التوجه نظرا لخلفيته الايديولوجية وسجله التاريخي.

و-ماذا يريد حزب التحرير:

يعكس برنامج حزب التحرير في آسيا الوسطى الاهداف والمنهجية العريضة لشبكة الحزب العالمية. وتعبر ادبياته في المنطقة عن مطلبين رئيسيين: خلق مجتمع اسلامي واقامة دولة اسلامية، هي "الخلافة". وتقوم فروع الحزب في آسيا الوسطى بالنسج على منوال برنامج الحزب المركزي، وتعيد باخلاص ترديد بياناته، بالاضافة للبيانات التي تصب في مصلحة البلدان الاخرى. ولكنها كذلك تصدر منشوراتها الخاصة التي تعكس البرنامج المحدد للحزب في آسيا الوسطى.

وتصدر المنشورات باللغات القرغيزية والازبكية والطاجيكية. ومما يعتبر منشورا نموذجيا، ذلك المنشور الذي صدر عن فرع الكويت للحزب، ضد انتشار الجيش الامريكي في الخليج، ويحمل تاريخ كانون الثاني ٢٠٠٣. وتلا ذلك المزيد من المنشورات حول العراق، والتي يبدو انها ضربت على الوتر الحساس في آسيا الوسطى. وهناك موضوعات نموذجية أخرى تشتمل على الدعوة للدفاع عن فلسطين ضد المحتلين الإسرائيليين، والنقد الشديد

٥-الشهادة:

في اعقاب جنازة لعضو من حزب التحرير في "اوش"، مات في السجن بسبب مرض السل، احتفلوا بموته كانه شهيد. وحضر الاحتفال نحو ٤٠٠ من الناس. وقال واحد منهم فيما بعد "لا اشك في ان أي واحد منا على استعداد لبذل حياته ولو خيرت بين عقيدتي والحياة لاخترت عقيدتي". وقال اخر: "ان الموت افضل من حياة على هذا الشكل ".

ويبدو ان قضية الشهادة اصبحت تتمتع بمكانة عالية في صفوف حزب التحرير. وقد عبر عن موقف متطرف حيال ذلك عضو في اوش بقوله: "من الاجدى الذهاب الى فلسطين، اخذ قنبلة وتفجيرها هناك. هكذا يجب العمل ضد اليهود. [سألت جماعة الازمة الدولية: هل تريد الذهاب الى فلسطين؟] نعم. اريد ان اصبح شهيدا ".

وليس لدى جميع الاعضاء هذه النظرة. فقد قال اخر:"ليس ذلك صوابا، تفجير نفسك، مثلما في فلسطين، ان لدينا هدفا مختلفا." يعتبر هذا التشوش الفكري حول الشهادة امرا سلبيا في ايديولوجية الحزب، التي رغم انها تعارض هذه الاعمال نظريا، الا انها تتعاطف معها.

وراى اخرون امكانات للشهادة في بلدانهم، ولكن بطريقة مختلفة: "الله هو الذي يأخذ الحياة. هناك الان الكثير من الشهداء. ان حلمي هو ان اصبح شهيدا-انهم يقتلون اجسادنا في السجن. لكن الموت على ايدي الاعداء هو الحلم الاكبر ".

الكثير من هذا هو تظاهر محض بالشجاعة. ذلك ان معظم الاعضاء شديدو الحذر ولا يعترفون بعضويتهم امام الناس الذين لا يثقون فيهم. مع ذلك، هناك اخبار عن اعضاء يودون الاعتقال بالتوزيع العلني للمنشورات، او بالحديث دون حذر لزملائهم في العمل عن معتقداتهم. يقول علماني شهد اعتقال عضو في طشقند: "شهدت في ايلول ٢٠٠١ اعتقال شاب في الثانية

وفي اوزبكستان، ركز منشور صدر في تشرين الاول ٢٠٠٢ على سياسة الرئيس كريموف التي تقيد حرية تجار السوق، مما كان له اعمق الاثر على معظم السكان. وفي طاجكستان عالج منشور مؤخرا سلسلة من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، بما فيها مشكلات المهاجرين الى روسيا، والالغام الارضية على الحدود مع اوزبكستان، وامدادات الغاز والكهرباء، وفساد المسؤولين: "ان جميع مسؤولي الحكومة، بدءا بالرئيس، يتنافسون مع بعضهم بعضا على بناء المنازل الفاخرة متعددة الادوار والمنازل الريفية، ويسافرون في احدث السيارات ".

لهذا النوع من الشكوى الشائع بين الناس العاديين، والذي نادرا ما يظهر في وسائل الاعلام الخاضعة للرقابة الشديدة، تاثير اكبر من اي نداء عالمي او ايديولوجي. وقد اعترف زعيم ديني في طاجكستان معارض عموما لحزب التحرير، بقوله: "ربما لا تحبهم [اعضاء حزب التحرير]، ولكنك لا تستطيع انكار انهم الوحيدون الذين يقولون الحقيقة حول طاجكستان ".

ويعتبر الرئيس الاوزبكي كريموف هدفا متكررا. وتصف الرسائل حكمه على انه "ظلم اليهود"، وتطالب بازاحته باستمرار. وهاجم منشور مؤخرا كريموف واضطهاده للمسلمين معلنا بان "اليهود يهيمنون على الاجهزة الامنية ويتعقبون اعضاء حزب التحرير ومنازلهم واقاربهم وجيرانهم وافراد اسرهم." ويتردد قول المنشورات بانه عندما تتم ازاحة كريموف والاطاحة به، سوف يكون المسلمون احرارا تحت عدالة الخلافة. يقول احد المنشورات: "ندعو الله العظيم بان يزيل جميع متاعبنا، ويحمينا ويدمر كريموف اليهودي ورفاقه في السلاح، وان يخرجنا جميعا من ظلام النفق الى النور، وان يوحدنا كلنا تحت علم الخلافة الإسلامية المقدسة. اننا نامل بهذا فقط".

ويندر ان تكون موضوعات المنشورات دينية محضة: جميع القضايا الدينية تتصل بمسائل سياسية هامة. وهناك موضوع شائع وهو خطأ عادات دينية وسط آسيوية، من وجهة النظر الإسلامية لحزب التحرير. ويتصل ذلك

للاحتلال الأمريكي للعراق. وتصدر جميع هذه المنشورات كذلك على مواقع حزب التحرير في الإنترنت، والتي تأخذها الجماعات المحلية عنها وتترجمها .

تبدو بعض القضايا العالمية بعيدة عن اهتمامات المسلمين في آسيا الوسطى. فالقضية الفلسطينية، مثلا، تحظى برومانسية اقل مما في البلدان العربية. ولكن هذا التوجه يبدو انه تغير قليلا أثناء الحرب في العراق، عندما كان للمعارضة واسعة النطاق فرصة قليلة للتعبير. ففي اوزبكستان على وجه الخصوص، لم تسمح الحكومة للحرب بالتعبير عن أي نقد، على الرغم من معارضة الاغلبية الساحقة للاعمال العسكرية الامريكية. وفي ظل هذه الظروف من الرقابة على وسائل الاعلام، كانت أي جماعة تنشر مادة تنتقد الحرب تجد جمهورا مستعدا للاصغاء لها.

والفئة الثانية من المنشورات تربط بين الاهتمامات العالمية والاهتمامات الايديولوجية. وليس من الواضح كيفية اختيار موضوعات المنشورات، ولكن من الواضح انها تبرز بشكل طبيعي من المناقشات داخل القيادة في رد فعل على الاحداث المحلية. ويظهر القليل من هذه المنشورات بعد ذلك على واقع حزب التحرير في الانترنت، وليس من الواضح اذا ما كانت توجد عملية تشاور مع القيادة المركزية .

وتناقش المنشورات موضوعات الفقر والبطالة والظروف الاجتماعية الصعبة لسكان آسيا الوسطى. وهذه المحاولة لاستغلال السخط الشعبي على سياسات الحكومة هي جزء من الفلسفة العامة للحزب. وقد كتب تقي الدين النبهاني حول ذلك: "ان نجاح أي حركة جماعية يقاس بقدرتها على اثارة الاستياء عند الجماهير ودفعها للتعبير عن استيائها في كل مرة يقدم فيها النظام الحاكم على تقويض او استغلال عقيدتها حسب مصالحه ونزواته "...

التعليم الذي تلقاه الكثيرون جاء شفاهية من معلميهم، وتعتبر مناقشاتهم مبسطة، ضمن حدود ما قد تعلموه. ومن شان ذلك ان يحد من امكانية قيام "حوار" فكري مع حزب التحرير. والواقع ان معظم الاعضاء لا يبدون اهتماما في المناقشة الحقيقية لافكارهم ويبدون في الغالب عاجزين عن التحرك الى ما وراء وجهة نظرهم الضيقة.

التأثير

من الصعب تقييم تاثير هذه الجماعة السياسية الصغيرة نسبيا على مجتمع واسعا. يدعي حزب التحرير احراز نجاح واسع في نشر افكاره وفي تاثيره على المجتمع. ولكن يؤكد اخرون على ان تاثير الحزب ضئيل واخذ في التقلص.

وربما كان اعظم ما يلقاه اعضاء حزب التحرير هو العطف باعتبارهم ضحايا انظمة حكم قمعية. فقد تصاعد الغضب على حكومة اوزبكستان وتزايد التعاطف مع حزب التحرير. واحرزت محاولات السلطات في عزل اسر اعضاء الحزب بعض النجاح الاولي، ولكن يبدو ان تاثير هذا البند الاجتماعي قد تلاشى. ويتذكر اقارب اعضاء الحزب "فتوى" دار الافتاء التي دعت الجيران الى تجنب التعامل معهم؛ ويقول والد احد الاعضاء: "جاء وقت كان لذلك بعض التاثير، لكنهم الان يأتون ويقدمون لي العون عندما اواجه المشكلات."

وهذا النوع من المساندة هو تعبير عن التضامن ضد نظام يواجه البغض على نطاق واسع، وبخاصة ضد الشرطة الوحشية المكروهة، والدلائل قليلة على انها تعكس دعما سياسيا، رغم ان اعضاء الحزب يدعون احيانا خلاف ذلك.

كما ان الاراء متنوعة في قرغيستان حول مدى التاثير. من الطبيعي ان يدعي اعضاء الحزب وجود مساندة شعبية متنامية. قال احدهم: الكل ياخذ

بعيد النيروز الذي يحتفل به الناس في بداية الربيع في افغانستان وايران وآسيا الوسطى، والذي يعتقد خطأ على نطاق واسع عند الكثيرين في آسيا الوسطى على انه عيد اسلامي. يقول منشور لحزب التحرير: "النيروز هو عيد الكفار والوثنيين...ايها المسلمون الى متى سيظل حكامكم، عبيد الكافرين، يجبرونكم على الاحتفال باعياد الكفار؟" وطبعا، فان لهذا تاثير بسيط على المجتمع الذي يواصل الاحتفال باي عيد يمكنه الاحتفال به .

وقد ركزت دعاية محلية اخرى في قرغيستان وازبكستان على القمع الذي تزاوله قوى الامن. فقد كرس منشور في شباط ٢٠٠٣ على وفاة عضو بحزب التحرير، هو عبيد الله توختاسين، توفي في السجن في ٣١ كانون الثاني ٢٠٠٣، واعلن بانه شهيد. وفي اوزبكستان، يعلن حزب لتحرير عن حالات اعتقال اعضائه او يطلب من جماعات حقوق الانسان التدخل نيابة عن الاعضاء. وقد طلب الحزب من جماعات حقوق الانسان التحقيق في الاختفاء المريب لاثنين من الاعضاء بعد اعتقالهما في ٦ آب ٢٠٠٢. وفي الغالب تقوم جماعات حقوق الانسان بتقديم المساعدة في هذه الحالات، رغم ان نص نداء حزب التحرير يعبر عن بعض الشك: "لماذا توجد [جماعات حقوق الانسان]؟ للدفاع عن جميع الناس بغض النظر عن دينهم وعرقهم وجنسيتهم، ام للدفاع عن حقوق كل شخص فيما عدا المسلمين؟ "

وقد اصبح الدفاع عن السجناء في اوزبكستان قضية دولية للحزب، الذي شن حملة في لندن عام ٢٠٠٣ للتركيز على اساءة حقوق الانسان هناك

ويوجد بالطبع، نطاق واسع من الادب النظري الذي "يتبناه" حزب التحرير، والذي ينشر الكثير منه باللغات المحلية، ولكن الواضح ان الاعضاء المحليين يقرأون القليل منه. ورغم ان الحزب يدعي العمل في عالم الفكر، لكن من الخطأ اعتباره حركة فكرية. صحيح ان الكثير من الاعضاء على مستوى جيد من التعليم، لكن الغالبية هم من البسطاء الذين لديهم ميل محدود لقراءة الاعمال الفكرية الكبرى حول المفاهيم الإسلامية. ذلك ان الكثير من

ولا تبرهن حالات الدعم السلبي على تأييد هام لاهداف الحزب السياسية. فلا يوجد سوى دليل ضئيل على التزام شعبي بدولة اسلامية، بالمعنى الذي يدعو اليه حزب التحرير، في أي بلد من بلدان اسيا الوسطى. وربما يوجد تاييد محدود لبعض وجوه الشريعة في بعض المناطق المحافظة، لكن ذلك محدود في النقد القاسي لما يرون انه انحدار في الاخلاق، وفي الدعوة الى اصدار تشريع يبيح تعدد الزوجات، او التنسيق بين الشعائر التقليدية واحكام الدولة في قضايا مثل الزواج.

ويركز حزب التحرير في بلدان كثيرة على صناع الفكر في محاولة للتاثير على السياسة. وقد لاقى ذلك في آسيا الوسطى، على الاقل، نجاحا قليلا، ورغم ان اعضاء الحزب يحبون الادعاء بانهم نجحوا في الوصول الى مسؤولين ذوي مكانة عالية، لكن الحقيقة اقل ايحاء. قال احدهم: "تحدثت [عن حزب التحرير] الى رئيس مجلس القرية، والى رئيس لجنة المحلة، والى مدير مدرستنا. عرفت شخصا هاما واذهب الان لرؤيته مرة في الشهر. واذا كان معه رجال. فانه يقول لهم: هل تريدون مقابلة "حزب". هل رايتم من قبل "حزبا"؟ ثم اتحدث. ان له رأيا جيدا عن حزب التحرير. ويقول فقط، اننا نستعجل الامور "..

ويولع الاعضاء بالادعاء بان لهم مؤيدين داخل اجهزة الامن. قال احدهم: "قال لنا مدير السجن: انكم حقا تقولون الصواب، ولكن لماذا لا تقولون ذلك الى اكايف؟ هل يعرف اكايف عن ذلك؟" ويدعي اخر بان بعض الشرطة يرفضون اعتقال اعضاء الحزب. ويبدو بعض رجال الشركة اكثر تعاطفا، او على الاقل يحرصون على عدم اتخاذ اجراءات صارمة خشية رد فعل معاكس من المجتمع. قال احد رجال الشرطة لجماعة الازمة الدولية: "يقولون لنا: اذا واصلتم اضطهادنا فلن يحضر جنازتكم احد عند موتكم، ذلك يجلب العار لنا. اذا قسوت عليهم فلن يات الإمام الى بيتك". لكن معظم من اجرينا معهم مقابلات في قوى الامن يعاملون حزب التحرير بدرجة كبيرة من الاحتقار،

المنشورات بحرية هذه الايام. ومن النادر ان يعطي احد منشورا الى الشرطة- احيانا يشترونها مقابل زجاجة من الفودكا" وادعى اخر: "في السابق، كان الناس عندما يسمعون عن الخلافة، كانوا يخافون. ولكنهم الان يقولون: "ليست الخلافة تاتي سريعا". وتنكر الشرطة وجود مساندة شعبية واسعة للحزب، رغم انها تواجه في الغالب مقاومة من الجيران والاقرباء عندما تحاول القيام بالقاء القبض على احد الاعضاء، وبخاصة في مجتمعات الاوزبك المحلية المتماسكة. وتواجه الشرطة مشكلات كبيرة في ايجاد شهود على استعداد للشهادة في المحكمة على اعضاء حزب التحرير. ومرة اخرى، ربما كان ذلك نتيجة للتضامن ضد عدو مشترك -الشرطة- اكثر منه دليلا على الالتزام الحقيقي.

وياتي بعض الدعم من السلطة التي يحظى بها بعض قادة حزب التحرير داخل المجتمع وبخاصة اذا كانوا يجمعون بين التقوى والتأثير المعنوي والتجارة. قال رجل شرطة: "عندما جرى اعتقال ملوجانوف، قالوا لنا: لقد جاء هنا لكي يعيش، يسر العمل للكثير من الناس هنا، فتح مصنع بوظة ومطعما-الان لا يوجد مدمنو خمر هنا، ولم يعد الشباب يدخنون الحشيش، منح عملا لعشرين شخصا". وقال احد اقرباء عضو في اوش: "لا اعرف شيئا عن حزب التحرير، لكنني اعرف اشخاصا كانوا مدمني مخدرات واصبحوا من الناس الصالحين ."

هذا الانطباع عن الحزب كحركة تصلح المجتمع بالمساعدة على حل المشكلات الفردية يبدو محدودا على جزء صغير من السكان الذين مروا مباشرة بهذه التجربة وهذا الانطباع. ولا يشجع حزب التحرير على ذلك لانه يحتقر العمل الخيري او الاجتماعي باعتباره يحول دون النضال السياسي. ويعتبر حزب التحرير عند معظم الناس، وبخاصة سكان جنوب قرغيستان، كمذهب ديني غريب بعيد عن حقائق الحياة اليومية، ليس له تاثير حقيقي على تفكيرهم.

ورأى البعض ان من الممكن ظهور جماعة اكثر تطرفا تتمخض عن حزب التحرير. ففي عام ١٩٩٩، شكلت مجموعة هامة من فرع طشقند حزبا خاصا بها، هو "حزب النصرة". ليست التفاصيل واضحة عن هذا الحزب، ولكن يبدو انه لم يكن راضيا عن اسلوب دعاية النضال السياسي الذي ادى الى اعتقال جزء كبير من شباب حزب التحرير، ولكن الحزب الجديد ربما كان على استعداد لتبني اساليب اكثر عنفا.

ويبدو ان البعض يرى في توزيع المنشورات خطرا كبيرا، او غير ذي فائدة، قال احدهم: "لم احاول مطلقا الاعتراض على القيادة...لماذا يعزلون انفسهم عن الشعب. لماذا يسمون انفسهم "حزبا"؟ لماذا يوزعون المنشورات؟ ولكنهم عندها اوضحوا لي بان في القرآن اية تقول ما معناه: سوف تظهر من المسلمين "امة"، تسمي نفسها كما تشاء، تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر".

ولكن يجب عدم المبالغة في امكانية حدوث انقسامات وجماعات منشقة. لان من المميزات الهامة لحزب التحرير ان القليلين من الاشخاص يتخلون عنه بعد الانضمام اليه. ويذكر معظم رجال الشرطة الذين اجريت معهم مقابلات حول هذا الامر، حالات نادرة من هذا القبيل. وقد اعترف احد الاعضاء بان بعض الناس تركوا الحزب او طردوا منه: "الضعفاء فقط هم الذين يتركون حزب التحرير. واذا حنث احد بقسمه فانهم يطردونه ولا يعطونه أي مهام. انهم لا يثقون به." ويتذكر عضو مضى عليه في الحزب خمس سنوات ثلاث حالات فقط من هذا القبيل: "واحدا كان له اب مدمن على الخمر، كان يكرهنا...كلما كنا نصلي كان يطردنا خارج البيت، وكان يضغط على ابنه وذهب الى الشرطة. ولم يستطع الابن تحمل ضغط والده، وترك حزب التحرير. اما الثاني الذي ترك الحزب فقد اقنعته الشرطة بالخروج(من الحزب). والثالث اصابه الجنون في السجن واصبح مخبرا...وعندما خرج من السجن ظل يتسكع قربنا، ولكنه بدأ يتعاطى المخدرات ".

وينظرون اليه على انه جماعة ذات اراء متطرفة تعيش على الهامش ولا تشكل خطرا. واعضاء الحزب انفسهم لا يحاولون التغلغل داخل اجهزة الدولة او في اجهزة الحكومة المحلية- "في أي مكان يسري فيه القانون بقوة". ولذلك فان مصير حزب التحرير تحقيق تاثير محدود في اسيا الوسطى اذا ظل بدون سند حقيقي عند السلطات وظل تاثيره محدودا على تفكير المجتمع. وربما يكمن السؤال الرئيسي في احتمال ان يفرخ حزب التحرير جماعات اخرى اشد عنفا، او ان يتحالف مع منظمات اسلامية مسلحة.

الحركة الاسلامية

أ-الخلافات داخل حزب التحرير:

على الرغم من البنية الصارمة لحزب التحرير، من الواضح ان خلافات ومنازعات تظهر من وقت لاخر داخل الحزب في اسيا الوسطى وقد دارت هذه الخلافات والمنازعات حول التكتيكات بشكل اساسي.

لم تكن جميع الخلافات بالضرورة حول تفضيل اعمال اكثر تطرفا فقد قام "بابيار باباجنوف" باجراء بحث حول جماعة منشقة عن الحزب، تسمى "الاكرمية"، اسسها "اكرم والداشيف" عام ١٩٩٦ في انديجان. ورغم انه احتفظ بالكثير من افكار حزب التحرير، بما في ذلك الالتزام بالكفاح "الفكري" بدلا من "العنف"، لكنه (ولدا شيف) حاول تبني تكتيكات واساليب تناسب ظروف اسيا الوسطى، وبخاصة منطقة "وادي فرغانا". وقد اتبع فكرة تطوير مجتمع اسلامي صغير، يلتقي فيه الاعضاء على اقامة شركات صناعية او زراعية صغيرة. وتشكلت موارد مالية مشتركة وزعت على الاعضاء او المؤيدين المحتاجين. ويبدو ان هذا النوع من البرامج الاجتماعية-الاقتصادية كان فاعلا بشكل خاص في الظروف الاقتصادية الصعبة لوادي فرغانا، وعكس رغبة الناس في اعادة تشكيل المجتمعات المحلية في حقبة من التغير الاجتماعي السريع.

نفس الاساليب. فقد كتب مؤسس الحزب، تقي الدين النبهاني": "لم توجد بنية صحيحة واحدة تهدف لاحياء الامة، اقيمت في أي من البلدان الاسلامية خلال القرن الماضي". ولكن ذلك لم يمنع التعاون في ظروف معينة، ونظرا للتأكيدات المتكررة الصادرة عن الحكومات في المنطقة بان حزب التحرير هو مجرد احد وجوه حركة اسلامية مسلحة، كان من الهام التحدي عن مدى وجود هذه الصلات واحتمالات تطورها.

تتمثل الحركات الاسلامية الهامة الاخرى والوحيدة في اسيا الوسطى في "حزب النهضة الاسلامية" في طاجكستان، وحركة اوزبكستان الاسلامية. تحول حزب النهضة من معارضة مسلحة اثناء حرب الطاجيك الاهلية الى حزب مشروع يشارك سلميا في العملية الدستورية. ولكن حركة اوزبكستان الاسلامية اصبحت بالتدريج جزءا من الحركة الاسلامية الدولية المتشددة ذات الصلة مع طالبان في افغانستان، واخذت تعمل من قواعد عسكرية، اولا في طاجكستان، وبعد ذلك في افغانستان.

وحظيت حركة اوزبكستان الاسلامية باكبر اهتمام دولي في السنوات الاخيرة، لاغاراتها العسكرية، رغم فشلها، على جنوب قرغيستان في اب ١٩٩٩ واب ٢٠٠٠، هزت المنطقة وعرت ضعف القوات العسكرية في اسيا الوسطى. وكانت الحركة حركة تشبه العصابات، لها نحو ثلاثة الاف مقاتل، وسعت لتحقيق اهداف دينية من خلال القوة. وقد تم تدمير قواعدها والكثير من تنظيمها اثناء التدخل العسكري بقيادة امريكا في افغانستان عام ٢٠٠١ .

والعلاقة بين حزب التحرير والجماعتين مختلفة تماما. فالحزب معاد لحزب النهضة الاسلامية الى حد كبير، ويتهمه بالخيانة بموافقته على اتفاقية السلام وتولي مناصب في الحكومة. وقد لخص منشور ظهر مؤخرا موقف حزب التحرير، بقوله: "رغم ان الاسلام لا يعقد سلاما مع كافر، فان زعيم حزب النهضة الاسلامية، نوري، الذي لا يحظى بمستوى مناسب من العلوم الدينية والسياسية، عقد سلاما مع حكومة طاجكستان مقابل عدة مناصب

ويبدو ان مستوى الالتزام يعود جزئيا الى العامل الايديولوجي. ويوحي البعض بوجود عقوبات تفرض على الذين يتركون الحزب، ولكن لا توجد ادلة حقيقية على ذلك. والارجح ان علم النفس الجمعي يلعب دورا رئيسيا. ذلك ان الروابط القوية التي تتشكل وتقوى بين الاعضاء توفر مجتمعا بديلا للكثير من الاعضاء الذين يشعرون في غالب الامر بانهم فقدوا الروابط الوثيقة مع المجتمع بطريقة ما. ويبدو ان الاعضاء في كثير من الحالات يبتعدون عن اصدقائهم السابقين، واحيانا عن اقربائهم. وربما كانت العودة الى المجتمع الواسع امرا بالغ الصعوبة. ويبدو ان مجموعات حزب التحرير تشجع هي نفسها على هذا الانفصال عن المجتمع على الاقل في المراحل الاولى من العضوية.

وبغض النظر عن الاسباب، فان هذا الارتباط بالمنظمة يعني استبعاد احتمال حدوث شرخ كبير في صفوف الحزب. ربما تنفصل مجموعات صغيرة، ولكن يبدو ان حدوث تغير خطير قد يطرأ فقط على الاساليب وياتي من القيادة، سوف يغبر توجهات الجماعة. ومن المستبعد ان يتلاشى حزب التحرير، رغم انه كذلك ربما ينمو قليلا. وربما يصبح راكدا، مع وجود مؤشرات الانسحار، مما يمكن ان يشجع بعض الاعضاء على اعادة النظر في اساليبه وتكتيكاته وتبني مواقف اكثر تطرفا.

ب-العلاقة بين حركة اوزبكستان الاسلامية، وحزب النهضة الاسلامية، وحزب

التحرير:

ان احدى خيارات حزب التحرير في توسيع مجال نفوذه هي الانضمام الى جماعات اخرى لها اهداف مشابهة، ولكن الاساليب مختلفة. وكما لاحظنا سابقا، هناك تناقض في ايديولوجيته حول العمل مع جماعات اخرى، لكن الاحتمال قائم ويبرره المفهوم الغامض في طلب المساعدة الخارجية، او "النصرة" ولكن الحزب رفض دائما الحركات الاسلامية الاخرى لانها لا تتبع

الانترنت الرئيسي المعادي لحزب التحرير، ويمتدح طالبان، ويرفض حزب التحرير باعتباره "عصري علماني ."

وعلى الرغم من ذلك، فان القاعدة الايديولوجية لحركة اوزبكستان الاسلامية، التي هي في الظاهر جزء من القوات الطالبانية، لـ تكن دائما واضحة، وتظهر وثائقها تعاطفا كبيرا مع حزب التحرير واعجابا به، رغم وجود شواهد على الامتعاض من رفضه حمل السلاح ضد الحكومة. ولا تحتوي وثائق الحركة على نقد هام لحزب التحرير، رغم ان المسؤولين في الحركة، في ابداء ملاحظاتهم على انشطة الحزب، يبدون احيانا اعتراضهم على اساليبه السلمية، مؤكدين بان "علينا التحدث مع الحكومة باللغة الوحيدة التي تفهمها".

اما اتجاهات اعضاء حزب التحرير في اسيا الوسطى نحو حركة اوزبكستان الاسلامية فهي مثيرة للاهتمام وتبدو غامضة الى حد ما، حيث اوضح احد اعضاء الحزب في مقابلة مع جماعة الازمة الدولية:

سؤال : ما هو رايك في حركة اوزبكستان الاسلامية؟

جواب : انهم اخواننا

س : هل تدعمهم؟

ج : نعم، انني ادعم أي شخص يكون مع الله.

ي : انهم يريدون الاطاحة بالحكومة

ج : اه، انني لا اؤيد ذلك...

وقال عضو اخر بالحزب مضى على عضويته زمن طويل: "الناس يريدون اقامة الاسلام في كل مكان. حركة اوزبكستان الاسلامية...انني اعتبرهم ذلك اخواننا، والطالبان والوهابيون هم كذلك اخواننا...ولكن ليس لديهم برنامج."

[حكومية]. ونتيجة لذلك، شلت الحكومة هذه الحركة، واصبح الحزب دمية تعمل فقط لمصالح الحكومة."

وهذا التوتر بين حزب النهضة وحزب التحرير متبادل، وبخاصة على مستوى القيادة. غير ان بعض الاعضاء العاديين على مودة افضل ويعود السبب في ذلك جزئيا لانتقادهم لموقف حزب النهضة. ولكن لا تكاد توجد فرصة لاي تحالف بين الحزبين: فحزب النهضة مصمم على البقاء داخل النظام السياسي الطاجيكي غير المتسامح، وبتجنب أي دلالة ممكنة على علاقات مع حركات اكثر تطرفا.

وتعتبر العلاقة مع حركة اوزبكستان الاسلامية مختلفة واكثر اثارة. وقد ظهرت عدة تقارير غير مؤكدة عن لقاءات بين قادة حزب التحرير وقادة حركة اوزبكستان الاسلامية وطالبان. لكن محتوى هذه اللقاءات غير مؤكدة. يدعي زعيم حزب التحرير في اندونيسيا، اسماعيل يوسانتو، بان الحزب ناقش مع زعيم طالبان، الملا عمر، فكرة قيادته للحركة من اجل الوصول الى الخلافة، لكنه لم يكن مهتما سوى بافغانستان .

من الصعب تأكيد اذا ما كان التقارب يمكن ان يقود الى بعض التعاون لو لم يحدث تدخل امريكي في افغانستان. ولاحظ مثل في لندن ان الاحتمال كان ضعيفا لو دعيت حركة اوزبكستان الاسلامية لتقديم المساعدة لانها لم تكن تملك قدرات عسكرية هامة. وبعد الاخفاق التام لتدخل الحركة العسكري في قرغيستان، يبدو ان حزب التحرير استنتج بانه سيجني القليل ويخسر الكثير من تحالفه مع قوة عسكرية عاجزة.

كما توجد خلافات دينية كبيرة بين حزب التحرير وبين الفلسفة الوهابية الجديدة التي يشترك فيها طالبان والقاعدة والجماعات المشابهة. ولا يوجد ود بين الوهابيين في اسيا الوسطى وحزب التحرير. فهما يرفضان بعضهما البعض باعتبار الطرف الثاني على خطأ كبير ف المسائل الدينية الرئيسية، وبخاصة حول القبول باحاديث نبوية معينة. ويدير الوهابيون موقع

المجتمع الدولي وحزب التحرير

للمجتمع الدولي دور صعب يمكن ان يلعبه في محاربة حزب التحرير. فهو من جهة يواجه تهديدا عالميا للارهاب من جماعات اسلامية، وهناك ضغط كبير على الحكومات الغربية لزيادة التأكيد على التعاون الامني في دول آسيا الوسطى على حساب التأكيد التقليدي على حقوق الانسان والاصلاح. ومن جهة اخرى فان مساندة حكومات قمعية في سياساتها ازاء جماعات مثل حزب التحرير، لن تكون فقط ذات نتائج عكسية، ربما باشعال التطرف عند الاعضاء، بل سوف يؤكد كذلك قناعات الكثير من الاعضاء (وبخاصة المسلمين) بان دور الغرب في اسيا الوسطى هو دور داعم للانظمة الاستبدادية، بهدف اخماد أي اثر للنشاط الاسلامي.

أ-المشاعر المعادية للغرب:

لا شك ان التدخلات العسكرية بقيادة الولايات المتحدة في افغانستان والعراق قد عززت المشاعر المعادية للغرب في اسيا الوسطى، ليس عند المسلمين المتطرفين فحسب، ولكن كذلك عند المجتمع باسره. والثقة قليلة في الدوافع الغربية، ويتضح هذا بجلاء في مواقف حزب التحرير من المنظمات الدولية والدول الغربية.

وكما اشرنا سابقا، تعبر ادبيات الحزب دائما عن الشك والكراهية العميقتين تجاه الغرب. وقد ركز الكثير منها على اسرائيل والاخضاع الاوروبي للاراضي العربية، وما ينظر اليه على انه النظام الغربي الاقتصادي والسياسي غير الاخلاقي. واحتوت النشرات الاخيرة على الكثير منالخطاب ضد الولايات المتحدة. ومن شان ذلك ان قوى النقد الموجه للعلاقة بين الغرب وانظمة الحكم في اسيا الوسطى: اتهم منشور ظهر مؤخرا في اوزبكستان الولايات المتحدة بالنشاط المساند للاضطهاد الذي يمارسه نظام كريموف ضد

وكان اعضاء اخرون ضد الحركة بشكل اوضح: "ليس لـدينا شـيء مشترك معهم، اننا نندد بهم...انهم يقرأون القران كذلك، لكن لهم اراء مختلفة. نحن بحاجة لاعداد الناس للخلافة". ولكن من الهام الاشارة الى انه ليس لـدى معظم الاعضاء معرفة كافية عن الحركة الاسلامية العامة. فعندما سئل عضو عن رايه في الحركة الوهابية، اعترف بانه قرأ عنها فقط في دائرة معارف.

وتبدو الخلافات في الاساليب والتكتيكات اعظم من امكانيـة التغلـب عليها على مستوى القاعدة، مع عدم وجود براعة ايديولوجية كافية لدى القيادة الانتقالية. ونظرا للضرر الخطير الذي لحق بحركة اوزبكستان الاسلامية نتيجة للتدخل الامريكي في افغانستان، يبدو من غير المحتمل قيام تحالف جاد يكون مفيدا لحزب التحرير. ذلك لان الحزب يصر على ان أي عمل عسكري يجب القيام به فقط عند وجود فرصة للنجاح، كما يبدو ان معارضته العامة للارهاب امر حقيقي. ولكن يبدو من المحتمل ان يستجيب على الاقل جزء من حـزب التحرير ، وبخاصة في اوزبكستان، الى دعوة قد تصدر لاتخاذ اجراءات اكثر تطرفا، ولكن يبدو حاليا في مثل هذه الخطوة ضرر اكثر من المنفعة.

وعموما، لا يبدو هناك ما يدل على وجود علاقات تنظيمية او عقائدية مع حركة اوزبكستان الاسلامية، فيما عدا ربما بعض الاتـصالات المتقطعـة اثناء فترة طالبان في افغانستان. اما مدى ما يمكن ان يوجد في المستقبل مـن تحالفات مع جماعات اخرى، فان ذلك يمكن ان يعتمد على ما قد يظهـر فـي المستقبل ويتمخض عن صفوف الحركة، وعن جماعات ساخطة اخرى داخـل مجتمع اسيا الوسطى.

يعتقلوننا. ليس العيب في عكابيف، لان الامم المتحدة تجبره على فعل ذلك "...

هناك مؤسسة لا تحظى بالشعبية عند اعضاء الحزب في قرغيستان لسبب ما، وهي المؤسسة الدولية "فردريخ البرت ستفتنغ" ذات الصلة بالحزب الديمقراطي الاشتراكي في المانيا التي تعقد ندوات حول تنظيم الاسرة. تساءل احد الاعضاء: لماذا تخشى البرت من وجوه الكثير من الاطفال عند المسلمين؟ يقولون في اوزبكستان ان النساء تجبر على تثبيت لوالب".

ان الكثير من الشعور المعادي للغرب الذي يجد سبيلا للتعبير عنه، هو في الغالب قد غبي تثيره صور الغرب الذي تنتشر فيه الدعارة والادب الاباحي واللوط. هذه موضوعات يوردها اعضاء من الحزب، رغم انهم ليسوا جميعا بمثل هذا العداء الذي ابداه عضو في جلال اباد: "اسوا ما في الامر ان الاولاد والبنات يدرسون معا، وهكذا يبدأ كل شيء. يجب ان توجد حافلات منفصلة للرجال وللنساء،وكذلك المساجد والمدارس .لقد اصبح الرجال الان مثل النساء والنساء مثل الرجال...هل تعلن ان هناك مواخير في جلال اباد الان؟ كيف يمكن لي السير مع ابنائي قرب هذه البيوت؟ هذه هي الديمقراطية. في امريكا لم يعودوا اميين، انهم قد تحولوا الى حيوانات، ونحن نسير في نفس الاتجاه "...

مثل بعض هذه الاراء يستحيل مواجهتها بالديمقراطية او بوسائل اخرى. انها تقوم على تحامل غير قابل للتعديل بالحوار. ولكن أي جهد لاضعاف موقفهم يستحق العناء وله تاثير ايجابي على بقية الناس. ان اضعاف الثقة بافكار حزب التحرير حول الحقائق الغربية سيكون خطوة مفيدة لاضعاف شعبية الحزب.

المسلمين المتدينيين. يقول المنشور: "مع توجه كريموف اليهودي لطلب خدمة امريكا، تبدي [امريكا] له الدعم المادي والمعنوي الحقيقي في حربه مع الاسلام والمسلمين. ولهذا السبب فان امريكا، التي هي الان مركز تفكير كريموف، تواجه لاوزبكستان، من خلال اليابان والبنك الدولي، ملايين الدولارات، وتعلمه [كريموف] بهذه الطريقة كيف يشهد حربا بشكل افضل ".

هذا العداء لامريكا ليس جديدا، ويعكس شكا عميقا بالحوافز الغربية في اسيا الوسطى. ولكن يبدو ان الحرب في العراق قد ابرزت وحركت خطاب حزب التحرير ضد الغرب. ويعكس الكثير منه المعارضة الشعبية العامة لسياسة امريكا الخارجية، ولكنه من وقت لاخر يعبر عن المزيد من التطرف: "ان امريكا وسياستها هي العدو رقم واحد. يجب ان يكون لامريكا وجود .

ويتناغم هذا الموقف الجيوسياسي مع شعور اوسع معاداة للغرب والذي تزداد حدته بشكل خاص عند اعضاء حزب التحرير، رغم ان مشاعرهم يمكن وجودها كذلك عند اجزاء اخرى من السكان. ويعارض الحزب بشدة تدخل المنظمات الدولية في اسيا الوسطى واصدر نقدا حادا لانشطتها.

يدعي حزب التحرير في منشور ظهر في طاجكستان: "يجري الصليب الاحمر واطباء بلا حدود تجارب على السكان بنشر مختلف الامراض المعدية.ونتيجة لذلك يموت الاطفال والشيوخ بشكل رئيسي". وهذا النوع من المعلومات الخاطئة يزداد بفعل ارتياب قديم بمنظمات خارجية، بعضها كان يجيء من انماط سوفيتية .

هذا النوع من كره الاجانب والمعلومات الخاطئة واسع الانتشار بين اعضاء حزب التحرير. قال احدهم في جلال اباد: "نحن نعرف الامم المتحدة جيدا يجب ان يكون اما الاسلام او الامم المتحدة. انهما لا ينسجمان. اذا قامت الخلافة فلن توجد الامم المتحدة، ولا يوجد انقسام بين مختلف البلدان، ان الامم المتحدة تعمل كجاسوس. انهم لا يعتقلون الشيوعيين او الديمقراطيين، لكنهم

٢- حقوق الانسان وحرية الاعتقاد:

لقد عملت السفارة الامريكية مثلما فعلت أي سفارة اخرى في طشقند لتعزيز مراقبة حقوق الانسان، على اساس حالة فحالة، لاعضاء حزب التحرير -مؤكدا اكثر مما فعلته معظم السفارات الاوروبية. ولكن لا يحظى سوى القليل من هذا العمل لحقوق الانسان بتغطية هامة. فهناك نرة واسعة النطاق عند سكان اسيا الوسطى، الذين في الحكومة والمعارضة، بان موقف الولايات المتحدى من حقوق الانسان يثير الشك الى حد كبير.

يشير المسؤولون الامريكيون الى الموقف الناقد الذي تتخذه الولايات المتحدة في تقاريرها السنوية حوق حقوق الانسان. ولكن نادرا ما تؤخذ هذه التقارير بجدية من جانب حكومات المنطقة. غير ان بيانات المسؤولين الامريكيين حول اساءات محددة لحقوق الانسان قليلة وهناك شعور في الخارج بفصل قضايا حقوق الانسان عن السياسات "العليا" الخاصة بالمصالح الامنية والاقتصادية. ربما كان ذلك صحيحا وربما لم يكن كذلك، ولكنه مؤكدا لاحساس لدى الكثير من السكان،وهو يوفر مصداقية معينة لاقوال جماعات مثل حزب التحرير.

وليست المناقشات الخاصة مع الوزراء بديلا عن البيانات العلنية التي تعبر عن القلق والتي تضمن تفريق الناس بين حكومة الولايات المتحدة وبين السياسات القمعية في المنطقة. ربما يزعج ذلك بعض الحكومات المحلية، ولكن البديل للغرب اسوأ بكثير، وربما يتضاءل الى ادنى حد التاثير الجيوسياسي للولايات المتحدة. ولن يغلق الرئيس كريوف قاعدة عسكرية امريكية بسبب اقدام وفد زائر على اصدار بيان علني حول ضعف حرية التدين في البلد .

وينبغي على الدول الاخرى اتخاذ موقف اقوى من الحكومات القمعية في المنطقة. وتعتبر حكومات اوروبا اقل نشاطا بشكل عام من الولايات المتحدة حول قضايا حقوق الانسان.

١- حظر حزب التحرير؟

مهما كانت طبيعة ايديولوجية حزب التحرير المريبة، يجب التفريق بين المنظمات الارهابية والجماعات المسلحة من جهة، وبين المنظمات من امثال حزب التحرير التي لا تقوم باعمال عنف. ان وجود حزب التحرير يؤكد على الحاجة الى توجه مختلف لفهم المنظمات الاسلامية، حتى لو كانت متطرفة. ذلك لان وضعها كلها في كفة واحدة مع جماعات العنف، مثل القاعدة، يضعف من الحملة المضادة للارهاب ويعطي سلاحا للمتطرفين الذين يدعون بان الغرب يعمل ضد حرية الرأي وضد الاسلام بشكل عام.

- لقد مارست اوزبكستان بشكل خاص ضغطا قويا على الحكومات الغربية لحظر نشاط حزب التحرير، مدعية بانه منظمة ارهابية ويهدد الامن العالمي. حتى الان قاومت الولايات المتحدة الدعوة لاضافة الحزب لقائمتها اتي تضم المنظمات الارهابية العالمية. ومن الاهمية بمكان ان تقاوم الدول الغربية الاخرى هذه المطالب: ان الحظر الذي مارسته المانيا عام ٢٠٠٢ لم يفعل شيئا من شانه تحسين امن المواطنين الالمان ولكنه اضاف وقودا لمقولات المتشددين في اوزبكستان. ومن المتوقع ان يؤدي دفع حزب التحرير للعمل السري الى تطرفه وان يصبح من الصعب توقع ما يقوم به من افعال.

هناك، بالطبع حاجة الى اجراء رصد دقيق لانشطة حزب التحرير في الدول الغربية. ولكن على قدر مساو من الاهمية دفع حكومات اسيا الوسطى للتراجع عن اعمالها القمعية ضد اعضاء الحزب. ولا تؤدي هذه الاعمال الى مجرد تطرف اعضاء الحزب في اسيا الوسطى، ولكنها كذلك تخدمهم كذريعة للقيام بحملة كبرى في الغرب. كما ان ارتباط الولايات المتحدة الوثيق بالانظمة القمعية في اسيا الوسطى يشكل حجة رئيسية لتجنيد اعضاء للحزب في الغرب.

٦- الفشل الاقتصادي:

ليس الاصلاح الاقتصادي هو الداء الشافي لكافة الامراض والصالح لاضعاف التطرف. ربما كان التغيير السريع المقترن بالفساد الخطير، والارتفاع السريع في تفاوت الثروة عند الناس، قد اسهم في تدهور الحركات الاسلامية في بلدان مثل مصر وايران. ولكن من غير المتوقع في آسيا الوسطى ان يكون للاصلاح هذا التاثير الجانبي؛ ذلك ان جميع هذه المظاهر السلبية "للاصلاح" موجودة من قبل، بدون ظهور أي من الفوائد الايجابية. ولذلك فان اصلاح البيئة الاجتماعية-السياسية امر حيوي وهام، ولكن يجب مواجهة ما هو اكبر من حاجات نمو الناتج الاجمالي العام. فيجب كذلك معالجة قضايا واسعة من التعليم والاستخدام والحكم، وذلك لتحقيق تاثير على الطموحات المحبطة لكثير من الشباب. ويجب استبدال الضغط السياسي في اوزبكستان بتحرير نظام الحدود: لان السخط لدى طبقات التجار يتحول بسهولة الى دعم لحركات المعارضة السياسية المتطرفة.

٧- اصلاح قطاع الامن:

تسهم افعال قوى الشرطة في آسيا الوسطى كذلك لصالح التطرف. ولا بد من ان تكون حقوق الانسان على قمة البرنامج مع استمرار تركيز الاهتمام على تعذيب السجناء والاساءة اليهم. ويحتاج ذلك لان يكون جزءا مركزيا من السياسة الدولية، لا ان يكون جزءا جانبيا يضاف الى العلاقات الامنية الثنائية. ولا بد من الربط بين دعم اجهزة الامن وبين النصح المقدم للقوى الملتزمة بالتغيير. ومن الهام بشكل خاص مساعدة قوى الشرطة على اكتساب مساندة المجتمعات المحلية.

٨- جمع الاستخبارات:

يعتبر عمل الاستخبارات امرا هاما بطبيعة الحال باعتباره جزءا من الانذار المبكر، كما ان المزيد من البحوث والرصد لجماعات مثل حزب

٣- قضايا واسعة النطاق:

ان المجتمع الدولي بحاجة كذلك الى مضاعفة الجهود لتحريك الحكومات نحو الاصلاح في نطاق واسع من القضايا.

٤- الانظمة السياسية المغلقة:

ينمو حزب التحرير في الانظمة السياسية المغلقة، حيث يوجد بديل محدود للمشاركة الحرة في السياسة. ففي اوزبكستان، تدعو الحاجة الى ادخال بعض الحريات الاساسية، مع اصدار تشريع بتشكيل الاحزاب السياسية العلمانية واجراء انتخابات حرة. وفي طاجكستان يجب على النخبة الصغيرة الحاكمة القبول بحقيقة الاحزاب المعارضة وحقها في المشاركة في عملية سياسية حقيقية، وكذلك وضع حد لاستمرار مضايقة حزب النهضة الاسلامية. وفي قرغيستان، سوف تقود النخبة السياسية المغلقة الى احباط الذين ابعدوا خارج النظام والى المساهمة في زعزعة اكبر، وفي ذلك بيئة يستطيع حزب التحرير وجده استغلالها لصالحه.

٥- حرية التعبير:

يكتسب حزب التحرير بالتأكيد نفوذا معينا بنقده القوي للحكومات وللقادة، ولا يظهر شيء من هذا النقد في الصحافة الاقليمية. لكن فتح وسائل الاعلام لمزيد من النقد امر حيوي في اوزبكستان التي تواصل فرض رقابة واسعة على المطبوعات. والوضع على حال افضل في قرغيستان، لكن هناك ضغطا متواصلا على الصحافة المستقلة. والتلفزيون الحكومي والوسائل الاعلامية الرسمية الاخرى بحاجة الى قدر كبير من الاصلاح. وفي طاجكستان حدث بعض التقدم في حرية الاعلام،ولكن تظل موضوعات كثيرة جدا محرم الخوض فيها...فيما عدا منشورات حزب التحرير.

الخلفية لحزب التحرير لنيل الدعم ولتعزيز برنامجه المضاد للعلمانية والمعادي للغرب والمعادي للفساد.

وهناك دور لقوى الامن، لكنها يجب الا تكون الجهة الوحيدة المسؤولة عن السياسة الخاصة بجماعات مثل حزب التحرير. ان القمع الشديد في اوزبكستان لم يوقف انشطة الحزب، وتوحي كافة الدلائل على انه اصبح اكثر تطرفا وان القمع الحكومي قد صدر في بعض الحالات النشطاء الاسلاميين الى الدول المجاورة.

ان حزب التحرير يشكل تحديا خطيرا لالتزامات المجتمع الدولي بحرية التعبير وحقوق الانسان. كما ان اراءه تناهض الاجماع التحرري والديمقراطي الكامن في جوهر معظم المنظمات والاتفاقيات الدولية. وهو يلعب دورا سلبيا في المجتمعات الغربية، يدفع الشباب الاسلامي الى التطرف، وينقل القليل منهم الى جماعات اشد تطرفا وربما ينتهي بهم الامر الى المشاركة في العنف. ولكن حظر نشاطه سوف يلبي هدفا محدود الجدوى ويعمل فقط على تحوله الى جماعة اكثر سرية وتآمرية للضغط للامتناع عن المواقف الاكث تطرفا.

لم يتمكن المجتمع الدولي من جانبه من رعاية وتعزيز بيئة للتحرر السياسي والديني في اسيا الوسطى. لقد اكدت الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبي، من جهة على الحاجة للالتزام بالمعايير الدولية لحقوق الانسان. ولكن من جهة اخرى، قادت السياسة الامريكية الى قيام علاقات وثيقة مع الحكومات التي ابدت دليلا ضيئلا على الالتزام الجاد بالتسامح الديني والتعددية السياسية.

لقد اكتسب حزب التحرير شعبية لانه يقوم بديلا لحقيقة مروعة في بعض الاحيان. ربما لا يمكن تحقيق خلافة مثالية، ولكن فكرة وجود نظام عادل في دولة ذات حدود مفتوحة واقتصاد جيد، قد جذبت الالاف من المؤيدين. ولن تقهر ايديولوجية الحزب بالقوة وحدها، بل لا بد من اجراء

التحرير امر هام بالنسبة للغرب. غير ان الاعتماد الزائد حاليا على اجهزة الامن في اسيا الوسطى يبدو بانه يقود الى جمع ضعيف للمعلومات. ذلك ان اجهزة الامن في اوزبكستان، الاقوى في المنطقة، تعمل من منظور سياسي ضيق، وهي محدودة بشكل كبير في قدرتها على تحليل المعلومات بشكل موضوعي. ومن شان تطوير موارد مستقلة وزيادة البحوث المفتوحة في هذا الشان ان يساعد على الخروج بسياسة افضل.

تظل اسئلة كثيرة حول حزب التحرير بدون اجابة عنها-على مستوى عالمي، وعلى مستوى اسيا الوسطى. فمن غير الواضح تمويله وعمق الدعم الدولي والمحلي له. وما تزال برامجه واساليبه غامضة في احسن الاحوال، والتزامه بعدم العنف مشروط وغير مطلق. وينبغي عدم التقليل من اهميته: صحيح ان اتباعه يشكلون حجما صغيرا ولكنه هام في دول اربعة من اسيا الوسطى، ولكن هناك مساندة شعبية حقيقية قليلة لهدفه بعيد المدى والجوهري في بناء دولة اسلامية.

ولا يمكن الفصل بين صعود حزب التحرير وبين البيئة التي ينعش فيها. وسيكون من السفه الربط بين صعود الوجدان الاسلامي والفقر واسع الانتشار، بشكل مباشر، لان الوضع اكثر تعقيدا. لكن مؤسس الحزب، النبهاني، فهم تماما ما الذي سوف يعترض نمو حركته: "الحركات [المتطرفة] لا تظه عندما يسود الغنى والوفرة، وتتامن الحقوق الطبيعة. وتتامن الرفاهية، ويتم اختيار الناس لاحتلال المراكز الهامة بناء على الكفاءة" . والذين يستجيبون لحزب التحرير لا بد لهم من اخذ كلام النبهاني حرفيا. والوفرة والحقوق ووضع حد للفساد، يجب ان تكون في قلب السياسة لاضعاف دعم الحركات الاسلامية المتطرفة في المنطقة.

اما الانحسار الحاد في الحرية السياسية، واستمرار تدهور الظروف الاجتمعية والاقتصادية، الذي يميز دول آسيا الوسطى، فانه يهيئ الظروف

٧- تنفيذ توصيات مقرر اللجنة الخاصة الدولية حول التعذيب لانهاء التعذيب النمطي وقتل السجناء، هذه الأعمال التي تزيد من التعاطف مع حزب التحرير وتساعد على تطرف السجناء.

الى حكومة طاجكستان:

٨- انفتاح النظام السياسي بالسماح لاحزاب المعارضة بالعمل بمزيد من الحرية، والسماح بالمزيد من حرية التعبير في وسائل الاعلام، وانهاء مضايقة حزب النهضة الإسلامية التي من المرجح ان تدفع مؤيدي الاسلام السياسي لايجاد بدائل اكثر تطرفا.

٩- تجنب الاعتماد الزائد عن الحد على قوى الامن في التعامل مع حزب التحرير، وتطوير ادراك اكبر للقضية عند القادة المتدينين، والجماعات التابعة للمنظمات غير الحكومية، وتشجيعها على العمل بين الشباب المعرض للخطر.

الى حكومة قرغيستان:

١٠- رفض الدعوات المنادية بالمزيد من الاجراءات القاسية ضد حزب التحرير، والتي لن تؤدي سوى للمزيد من تطرف اعضائه واكسابهم التعاطف.

١١- ايقاف الانزلاق نحو الاستبداد والفاشية مثلما هو عليه الحال في السنتين الاخيرتين، وانهاء السياسة الرامية الى الحد من نفوذ احزاب المعارضة العلمانية.

١٢- اتخاذ اجراءات نشطة لاصلاح هياكل تطبيق القانون، بما في ذلك المزيد من التوازن العرقي في التجنيد، وزيادة تعليم الامور الدينية للشرطة والمسؤولين.

اصلاحات حقيقية عبر الحدود لاضعاف تاييده. صحيح ان التحسن الحقيقي في الوضع الاجتماعي والاقتصادي سوف يستغرق زمنا، ولكن المتوقع ان يعمل التحرر على اسعاف منزلة حزب التحرير بدلا من زيادة الدعم له. اما السياسات الحالية للدول، وبخاصة في اوزبكستان، فهي قريبة جدا من خلق الظروف التي ينتعش فيها التطرف بدلا من اقتلاع جذوره.

توصيات:

الى حكومة ازبكستان:

١- ان يتولى، بمشاركة متخصصين في الاسلام وخبراء مستقلين، القيام بعملية مراجعة هامة لسياستها ازاء الجماعات الدينية والمعارضة السياسية.

٢- اعطاء شرعية لجماعات المعارضة العلمانية، مثل "بيرليك"، والسماح للجماعات السياسية الاخرى بالعمل بحرية، وبخاصة تلك الجماعات التي تعترف بالنظام الدستوري القائم.

٣- السماح للقنوات القانونية بالتعبير عن سخط بفتح وسائل الاعلام لمناقشة القضايا الدينية والسياسية والسماح بنقد الحكومة وقوى الامن.

٤- الغاء القوانين التي تقيد التجارة عبر الحدود والتجارة الصغيرة، والتي اثارت غضبا شعبيا واسعا وحرضت على تقديم المزيد من التاييد للمعارضة المتطرفة للدولة.

٥- اعطاء رجال الافتاء والائمة حرية في تعليم الدين الإسلامي والسماح بظهور شخصيات موثوقة ممن يقدرون على تحدي افكار حزب التحرير الإسلامية.

٦- وضع اجراءات جادة لاصلاح قطاع الامن، والحد من سلطة الشرطة وتعزيز استقلال القضاء.

الفصل الثامن

التأثير الأيديولوجي للروس على مسلمي وسط آسيا والقوقاز

إن مسألة الدين والقومية في الاتحاد السوفيتي كانت ر ١ الت تمثل الاتجاه الأيديولوجي للشيوعية الروسية، والتي أثبتت فشلها طوال الأعوام الماضية، فإن الشيوعية لم تستطع فرض الوحدة الأيديولوجية حتى على الشعوب والقوميات الصغيرة، فما زالت لتلك القوميات لغة ودين، والفكر الخاص بها ولقومياتها، فكيف كانت تتوقع السلطات الشيوعية أن تنجح في البلدان الآسيوية الكبيرة وذات التاريخ والحضارة والمدنية العظمى مثل بلدان تركستان، وقد تنبه المفكرون الروس لتلك الحقيقة، ولمسوا حقيقة مهمة وهي: لكي تغدو للشيوعية أيديولوجية ناجحة بالإضافة إلى نظام سياسي، فإن عليها أن تبدل من صفتها، وتزيد من مبادرتها الروحية، أو عليها أن تسمو إلى ذروة التعاليم الدينية لبلدان آسيا. وقد بدأ تنفيذ هذا الاتجاه بإقرار مبادئ تسمى "بأخلاق الشيوعية" التي تدرس في المدارس الروسية، والتي تضع تأكيدًا كبيرًا على الصدق والشرف والاستقامة كأخلاق حسنة لضمان سير الآلة الحزبية، ويكون منافسًا للكتب الدينية، ولكن كان لابد للشيوعية أن تخسر هذا المجال الروحي رغم ربحها في المجال المادي، ومن هنا تكمن نقطة الضعف الأساسية في الجهاز الشيوعي السياسي والأيديولوجي كله، وفي سياسته الخاصة بالدين والقوميات.

وهنا نرى أنه طالما أن الدين باقٍ جنبًا إلى جنب مع القومية، فإن ذلك يعطي دلالة كاملة على أن التأثير الأيديولوجي للشيوعية لا وجود له في نفوس شعوب آسيا الوسطى، وهذا هو الحكم الأعم والأشمل، ولكن توجد بعض الاستثناءات على هذا الحكم، فنجد بعض الأشخاص ممن يحملون الدين الإسلامي والقومية الخاصة به يندمج مع النظام الشيوعي وفكره من أجل

للولايات المتحدة وأعضاء المجتمع الدولي:

١٣- تجنب الارتباط الوثيق بالسياسات القمعية لانظمة الحكم في آسيا الوسطى ضد المسلمين، واتخاذ موقف حازم ضد الاساءة لحقوق الانسان والتعذيب والعمليات القضائية غير العادلة فيما يتعلق باعضاء حزب التحرير.

١٤- اعطاء الاولية لحقوق الانسان والحرية الدينية وحرية الاختلاف مع سياسات حكومات آسيا الوسطى التي تقوض الاستقرار بعيد المدى وكذلك مستويات المعيشة.

١٥- الضغط على حكومات المنطقة للقيام باجراءات نشطة لانفتاح النظام السياسي، والقيام بالمزيد من الاصلاح الاقتصادي وتحرير التجارة عبر الحدود، ومحاربة الفساد داخل صفوف النخبة.

١٦- تحسين سبل جمع المعلومات حول حزب التحرير.

١٧- مقاومة الدعوة لخطر حزب التحرير في البلدان الغربية، والتي سوف تعزز السياسات القمعية في آسيا الوسطى ودفع الحزب الى العمل السري ولاتخاذ مواقف اكثر تطرفا.

زالت كما هي منذ الفتح الإسلامي، وحتى استقلال تلك الدول، وهي تمثل العادات والتقاليد والتعاليم الإسلامية، وتلك الأمور هي:

- استمرار مزاولة الختان للطفل المسلم.
- استمرار إتمام الزواج على الطريقة الإسلامية (يتم العقد بمشاركة إمام المسجد، وتقرأ آيات من القرآن الكريم).
- استمرار مراسم دفن الموتى من المسلمين (غسل- كفن- جنازة- تلحيد- دعاء).

كل هذه الأمور والطقوس الدينية تدل دلالة كافية على ثبات الإسلام واستمراريته عند شعوب آسيا الوسطى، خاصة وأنها تتم في بيئة معادية.

واليوم، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وبمجرد الإحساس بملامح الحرية في روسيا الشيوعية، سارع المسلمون إلى بناء المساجد وتعميرها من جديد، واندفع الناس، وخاصة الشباب إلى داخل المساجد رغم عدم معرفتهم بالصلاة، فبرغم بعدهم عنه، فإن قلوبهم عامرة بالإسلام فيعودون إليه بحماس شديد رغم محاولات السلطات السوفيتية طمس الثقافة الإسلامية، وإبعاد المسلمين عن روح الحياة الإسلامية، وقد ساعدتها القوانين الشيوعية التي حاصرت التعليم الإسلامي، ومنعت نشر الكتب الإسلامية، خاصة ما يتعلق منها بالتراث والأدب الإسلامي، وكانت السلطات الشيوعية قد خصصت لذلك جماعات لا دينية تقوم على الأيديولوجية الشيوعية لمحاربة الأديان، ومنع نشر كتبها، وفي نفس الوقت تشجع نشر الكتب ذات الفكر الإلحادي، ومع كل ذلك بقيت جذوة الدين موقدة في قلوب المسلمين، مصداقًا لقوله تعالى: (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وعندما نسوق بعض الأدلة المادية التي تعبر عن الحالة الفكرية، والأيديولوجية لمسلمي وسط آسيا، نلاحظ أن الإسلام كان كامنًا في النفوس، وحين رأى بارقة نور أطلق عنانه للخروج، وللتعبير عن مكونات نفسه

تحقيق مصالح شخصية ومادية وإن كانت هذه الحالات تعد في نظر القومية خيانة عظمى، فإنها أمام التاريخ تعد حالات فردية لا تعبر عن نجاح الأيديولوجية الشيوعية في بلدان آسيا الوسطى.

ولكن لابد للباحث في هذا الصدد من أن يفرق من الناحية التاريخية والجغرافية والثقافية بين الشعوب التي دخلت الإسلام مبكرًا، وتلك التي دخلته في عهد قريب.

فنجد أن الإسلام ظل قويًا على مر التاريخ في نفوس أبنائه في المناطق التي دخلها مبكرًا وكذلك في المناطق الحضرية مثل أوزبكستان وطاجيكستان وغيرها.

في حين نجد أن قوة اختراق الإسلام للثقافات المحلية ليست عالية في قازاقستان وقيرغيريا، وهي المناطق التي كانت تسكنها قبائل بدوية كان تأثير الإسلام عليها ضعيفًا، ومع ذلك ظل الإسلام محافظًا على أهم خصائصه، وهي الثبات والاستمرارية في نفوس شعوب آسيا الوسطى الإسلامية، بل اقتصرت الكتابات عن الإسلام بوجه عام، وعن أحوال المسلمين هناك، ولم تتطرق الكتابات للتعرف على كيفية تفاعل الإسلام كدين وثقافة مع المحاولات الجادة من قبل السلطات السوفيتية لإحلال ثقافية شيوعية اشتراكية أساسًا لمشروع بناء الاتحاد السوفيتي، وتقويض الثقافات التقليدية ذات الطابع الديني، والتي شكلت عائقًا أمام ذلك المشروع، وكانت بمثابة الوعاء للنزاعات المحافظة على التميز القومي، ومقاومة الاندماج في المجتمع السوفيتي، وقد توصلت تلك الدراسات إلى نتيجة واحدة تمثلت في الاعتراف بقدرة الإسلام على الاستمرارية بالرغم من قوة، وكثافة الحملات الروسية، والرسمية المعادية.

ورغم قوة وقسوة النظام الشيوعي إلا أن الدلائل المادية على استمرارية الإسلام في تلك المناطق كانت واضحة في ثلاثة أمور، كانت وما

في القرآن، وتحويل الصلاح إلى فساد، وهكذا انتهج كراتشكوفسكي منهجه عن قصد تنفيذًا لطلبات السلطات السوفيتية التي علقت آمالها عليه في زرع الكراهية في نفوس الناس من ناحية الدين الإسلامي.

وعلى هذا جاءت الترجمة تحمل نصوصًا للقرآن مبهمة، وغامضة، وثقيلة المعنى والإدراك، حتى إن من يطالعها لا يفهمها، وتنفر منها نفسه، وهذا هو المقصود من الترجمة، وقد نجح كراتشكوفسكي في تحقيق الخطة الماكرة التي وضعتها السلطات الشيوعية لخلق جو هادئ ومهيأ لنشر الفكر الماركسي الإلحادي.

ولإحكام تنفيذ هذه الخطة بإتقان تام، فإن أنصار الفكر الشيوعي رحبوا بهذه الترجمة، ووصفونها بأنها حدث تاريخي علمي لم يسبق له مثيل في علم الاستشراق، وزعموا أن من لا يفهم هذه الترجمة جاهل بشؤون الدين الإسلامي.

رغم أن هذه الأخطاء شملت القرآن الكريم كله، وفي مختلف سوره، ولسوف نسوق مثالاً واحدًا على ذلك:

"في سورة الناس جاءت ترجمته الحرفية" إله الناس الذي يختبئ من شر الوسواس "أيعقل هذا؟ أيعقل أن الله سبحانه وتعالى يخاف ويخشى من مخلوق له دنيء، بل ويختبئ منه.

وعلى هذا المنوال كانت ترجمة كراتشكوفسكي لكل سور القرآن الكريم، فقد ظهرت حقيقة فكره، وشر مقصده، وتعمده لإرضاء السلطات الشيوعية، وبالرجوع إلى تاريخ الاستشراق الروسي نجد أن أول ترجمة تمت من النص العربي قام بها المستشرق "سابلوكوف" من مدينة قازان، وتم نشرها عام ١٨٧٨م، ثم طبعت مرتين عام ١٨٩٤م و١٩٠٧م، وظلت هذه الترجمة متداولة في الأوساط العلمية، وبين جمهور القراء على مدى قرن تقريبًا،

المؤمنة، وهذا ينطبق بالطبع على شتى بقاع الاتحاد السوفيتي في جمهورياته المسلمة المستقلة، فمثلاً في منطقة قازان، وعندما صعد المؤذن منارة المسجد ليرفع الأذان في عاصمة التتار (تتارستان) بعد ظلم وقهر دام أكثر من سبعين عامًا، وقف الناس في سعادة غامرة، وكبروا وهللوا بعد ظلم إيفان الرهيب الذي منع الأذان والتدين، وقتل العلماء، وشرد المسلمين، ومثّل بزعمائهم، وذلك في منطقة القرم، والتي شهدت تحويل المساجد إلى مسارح وكباريهات ونوادٍ ليلية للرقص، بعد أن خصصوا مساحة المسجد للراقصات، إهانة للمسجد وللمسلمين ومشاعرهم، ولكن شاءت إرادة الله أن ينقشع الظلم، ويعود الإسلام إلى عزته ومجده بنصر من الله.

وكذلك الحال في داغستان وطشقند وأذربيجان، ووادي فرغانة، وغيرها من البقاع المسلمة التي شهدت ميلاد العلماء، وكانت مراكز إشعاع للحضارة الإسلامية، فها هي تعود اليوم لمجدها، وتاريخها الذي توقفت حركته عشرات السنين، والذي كان يعد الدافع القوي والخفي في نفوس المسلمين لمحاربة البرنامج الشيوعي، والذي كان يهدف لترويس المسلمين، أي إلى تحويلهم إلى روس بالتغيير في الأسماء والعادات والتقاليد وبعدهم عن دينهم، وعدم الاعتداء به في شؤون حياتهم، وتربية النشء على ذلك لتغيير منهج التفكير عندهم، ومع كل ذلك لم يتأثر الفكر الإسلامي بالأيديولوجية الشيوعية، وظل الإسلام على خصوصيته من الثبات والاستمرارية في نفوس المسلمين ظاهرًا وباطنًا، وكانت الأيديولوجية الشيوعية تسيطر على الفكر المسلم بالعبث في المسائل الدينية، وتشويشها من جانب، ثم تقوم بتقديم الأفكار الماركسية في صور متعددة، أحيانًا في شكل فنون، وتارة في شكل أعمال أدبية، وأحيانًا أخرى في صورة مضاهاة للدين، وأفكاره ومعتقداته البالية من وجهة النظر الماركسية، وكان مليئًا بالمغالطات المتعمدة والهذلية، وذلك واضح تمامًا من ترجمة كراتشكوفسكي للقرآن الكريم الذي تعمد فيه بث المغالطات والغموض، بل لقد تضمنت بعض أجزاء من ترجماته إسباغ الكذب على كل ما هو صادق

على حقيقته بأنه أخطر الأديان المرجعية، ويبذل أقصى جهده ليكون في خدمة المستغلين والإقطاعيين والرأسماليين، ويناهض الحركات التحررية.

وتركز الوثيقة في موضع آخر على المخطط الشيوعي لهدم الإسلام، ومن هذا المخطط أن تتخذ من الإسلام نفسه أداة لهدم الإسلام، وقد تقرر ما يلي:

١- مهادنة الإسلام لتتم الغلبة عليه، ولتجتذب الشعوب الإسلامية للاشتراكية.

٢- تشويه سمعة رجال الدين والحكام المتدينين، واتهامهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية.

٣- تعميم دراسة الاشتراكية في جميع المعاهد والكليات والمدارس في جميع مراحل التعليم، ومزاحمة الإسلام ومحاصرته حتى لا يصبح قوة تهدد الاشتراكية.

٤- الحيلولة دون قيام حركات دينية في البلاد مهما يكن شأنها ضعيفًا، والعمل اليقظ الدائم لمحو أي انبعاث ديني.

٥- لا يغيب عنا أن للدين دوره الخطير في بناء المجتمعات، ولذا وجب أن نحاصره من كل الجهات، وفي كل مكان، وإلصاق التهم به، وتنفير الناس منه بالأسلوب الذي لا ينم عن معاداة الإسلام.

٦- تشجيع الكتاب الملحدين، وإعطائهم الحرية الكاملة في مهاجمة الدين، والشعور الديني، والضمير الديني، والعبقرية الدينية، والتركيز في الأذهان على أن الدين انتهى عصره.

٧- قطع الروابط الدينية بين الشعوب قطعًا تامًا، وإحلال الرابطة الاشتراكية محل الرابطة الإسلامية التي هي أكبر خطر على اشتراكيتنا العالمية.

ولكنها مع مرور الوقت أصبحت نادرة، ثم ظهرت عام ١٩٦٣م ترجمة المستشرق "كراتشكوفسكي"، وهي آخر ترجمة، وأصبحت هي المعمول بها.

وبمراجعة تاريخ الترجمتين، نجد أن الترجمة الأولى للمستشرق سابلوكوف كانت في العهد القيصري، وقبل العهد الشيوعي الإلحادي، وأصبحت نادرة، ولم تقم السلطات الشيوعية بإعادة طبعها، لكونها ترجمة صغيرة وصحيحة لمعاني القرآن الكريم، ويستطيع أي إنسان أن يفهم ما يريد رغم الأخطاء غير المؤثرة في المعنى العام للترجمة، فهي في النهاية ترجمة صغيرة ولكنها مفيدة، ولذا عمدت السلطات الشيوعية إلى إخفائها، واستعاضت عنها بترجمة كراتشكوفسكي بما تحويه من مقاصد شريرة ومفاسد مقصودة تهدف في النهاية للنفور من الدين الإسلامي، والبعد عنه، وهو ما خططت له السلطات الشيوعية لإجلاء الساحة الفكرية، تمهيدًا لبث الفكر الماركسي من خلال أيديولوجية شيوعية منظمة تهدف إلى نشر الفكر الإلحادي، وتحارب الإسلام والمسلمين في دينهم وعقيدتهم.

ومن هذا المنطلق، تجدر بالباحث الإشارة إلى وثيقة سرية عن المخطط الشيوعي السوفيتي ضد الإسلام، ونشرته مجلة "العلم والدين" الروسية، في عددها الصادر أول يناير سنة ١٩٦٤م، ما نصه:

رغم مرور خمسين عامًا على الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، وبرغم الضربات العنيفة التي وجهتها أضخم قوة اشتراكية في العالم الإسلامي، فإن الرفاق الذين يراقبون حركة الدين في الاتحاد السوفيتي صرحوا: إننا نواجه في الاتحاد السوفيتي تحديات داخلية في المناطق الإسلامية، وكأن مبادئ "لينين" لم تتشربها دماء المسلمين، وبرغم القوى اليقظة التي تحارب الدين، فإن الإسلام ما يزال يرسل إشعاعًا، وما زال يتفجر بالقوة، بدليل أن ملايين من الجيل الجديد في المناطق الإسلامية يعتنقون الإسلام، ويجاهرون بتعاليمه، مع أن قادة الحزب ومفكري الثقافة السوفيتية"، وصفته

١٣- إشغال الجماهير بالشعارات الاشتراكية، والأناشيد الحماسية، والوطنية والأغاني الوطنية والعسكرية والتنظيمات الحزبية، والمحاضرات المذهبية، والوعود المستمرة برفع الإنتاج، ومستوى المعيشة، وإلقاء مسؤولية التأخير، والانهيار الاقتصادي والجوع، والفقر، والمرض على الرجعية، والاستعمار والصهيونية والإقطاع ورجال الدين.

١٤- تحطيم القيم الدينية والروحية بإظهار ما فيها من خلل وعيوب، وتحذير القوى المناهضة.

١٥- الهتاف الدائم ليل نهار بالثورة، وأنها المنقذ الوحيد للشعوب من حكامها الرجعيين، والهتاف للاشتراكية بأنها هي الجنة والفردوس المنتظر للجماهير الكادحة.

١٦- نشر الأفكار الإلحادية، وكل فكرة تضعف الشعور الديني، والعقيدة الدينية، وزعزعة الثقة برجال الدين في كل قطر إسلامي.

١٧- لا بأس من استخدام الدين لهدم الدين، ولا بأس من أداء الزعماء الاشتراكيين بعض الفرائض الدينية الجماعية (صلاة الجمعة- الحج) للتضليل والخداع على ألا يطول زمن ذلك، فالثورة قبل كل شيء هدم للقديم والمواريث الدينية جميعًا.

١٨- إعلان أن الاشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح لا بالدين الزائف الذي يعتنقه الناس لجهلهم، والدين الصحيح الذي يتلاقى مع الاشتراكية هو الاشتراكية، والدين الزائف هو الأفيون المخدر، وإلصاق كل عيوب الدراويش وخطايا رجال الدين بالدين نفسه.

١٩- تنشئة الإنسان الذي تريده الاشتراكية لبلوغ مآربها، وتحقيق غاياتها بالدين الصحيح، والدين الثوري، والدين المتطور، ودين المستقبل حتى

٨- إن فصل روابط الدين ومحو الدين لا يتمان بهدم المساجد والكنائس؛ لأن الدين يكمن في الضمير. والمساجد والمعابد مظهر من مظاهر الدين الخارجية، والمطلوب هو هدم الضمير الديني، ولم يصبح ذلك صعبًا بعد أن نجحنا في جعل السيطرة والحكم والسيادة للاشتراكية، ونجحنا في تعميم ما يهدم الدين من خلال القصص والمسرحيات والمحاضرات والصحف والأخبار والمؤلفات التي تروج الأخبار، وتهزأ بالدين ورجاله، وتدعو إلى العلم وحده، وجعله الإله المسيطر.

٩- مزاحمة الوعي الديني وطرده بالوعي العلمي.

١٠- خداع الجماهير بأن نزعم بأن المسيح اشتراكي، فهو فقير وأتباعه فقراء، وهكذا بالنسبة لمحمد، فهو إمام الاشتراكيين، وحارب الأغنياء والمحتكرين، وعلى هذا النحو نصور الأنبياء والرسل، ونبعد المقدسات الروحية والوحي والمعجزات عنهم بقدر الإمكان، لنجعلهم بشرًا عاديين، حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التي أوجدوها لأنفسهم، وأوجدوها لأتباعهم المهووسين.

١١- في القرآن والتوراة والإنجيل قصص، ولئلا نصدم الشعور الديني للجماهير ونثيرهم على الاشتراكية، يجب أن نتقبل هذه القصص ونفسرها تفسيرًا اشتراكيًا ماديًا، فقصة يوسف في القرآن مثلاً، يمكن تفسيرها تفسيرًا ماديًا تاريخيًا، وما فيها من جزئيات يمكن أن نستفيد منها في تعبئة الشعور العام ضد الرأسمالية والإقطاعيين والنساء الشريفات والحكام الرجعيين.

١٢- إخضاع جميع القوى الدينية للنظام الاشتراكي، وتجريد هذه القوى تدريجيًا من روحها... إلخ.

ولكن تبًا لهذا الفكر المريض، فالإسلام جزء من المكون الرئيسي للمسلم، فالإيمان يسير في دمه، ويمتزج بوجدانه، ويكون عقيدته حتى أصبح جزءًا من هويته الذاتية التي لا انفصام عنها.

ومن ثم يمكن القول بوجود بعض مظاهر للتأثير الأيديولوجي للروس على بعض فئات مسلمي وسط آسيا والقوقاز دون الكل، فالإسلام في تلك البلدان يمتزج بالسلوك الاجتماعي للشعوب هناك حتى يمكن أن يطلق عليه الإسلام الشعبي، لأن الإسلام كدين وتقاليد وعادات وعبادات ومعاملات ما زال قويًا، ويؤلف جزءًا أساسيًا من الحياة الاجتماعية للناس دون ضعف أو تراجع، فالمساجد أعيد بناؤها، وأصبحت تمتلئ بالمصلين، وخاصة في صلاة الجمعة، والطرق الصوفية منتشرة، وزيارة مزارات الأولياء الصالحين أصبحت تقليدًا دينيًا اجتماعيًا، وبخاصة في الأرياف، وما زال قويًا، والعادات والتقاليد الإسلامية ما زالت تتبع وتحترم وتقدس.

وقوة الإسلام الظاهرة في حياة الناس ذاتية التأثير، وكذا التغييرات التي تحدث في بقية العالم الإسلامي. وإن نهوض الإسلام وتحديد اتجاهاته يصير التكهن به عسيرًا، نظرًا لامتزاج الإسلام بالقومية.

ولكن لا نغفل نقطة مهمة في هذا الموضوع، وهي أن معظم رؤساء الدول الإسلامية بوسط آسيا هم جميعًا شيوعيون سابقون سارعوا إلى ركوب موجة الاستقلال والقومية، بعد أن سقطت المركز نهائيًا، وانهار الاتحاد السوفيتي، وإن كانت اتجاهاتهم في النهاية ستسير في اتجاه رغبة شعوبهم التي تتطلع لمزيد من الحرية الدينية، والرجوع لأصولهم الإسلامية التي حافظوا عليها طوال فترة الاحتلال القيصري والشيوعي والنظام الماركسي الإلحادي المنهار، بعد أن استخدم الشيوعيون كل الوسائل الثقافية والفكرية من أجل تشكيل الإنسان الذي يريدونه بعيدًا عن الدين والقيم الكلية للأخلاق.

يتم تجريد الإسلام الذي جاء به محمد من خصائصه ومعالمه، والاحتفاظ فيه بالاسم فقط.

٢٠- أخذنا بتعاليم لينين، ووصيته بأن يكون الحزب الاشتراكي خصمًا عنيدًا للدين ويحارب فكرته عن الآخرة، وما ينتظر بعد الموت بالفردوس الذي تحققه الاشتراكية العلمية، والتي تحقق العدالة الاجتماعية التي هي الفردوس، وإذا وجد أنه من الضروري مهادنة الدين وتأييده، وجب أن تكون المهادنة لأجل التأييد بحذر، على أن يستخدم التأييد والمهادنة لمحو الدين.

٢١- الاهتمام بالإسلام.مقصود منه أولاً: استخدام الإسلام في تحطيم الإسلام، وثانيًا: استخدام الإسلام للدخول في شعوب العالم الإسلامي.

٢٢- وباسم تصحيح المفاهيم الإسلامية وتنقيتها من الشوائب، وتحت ستار الإسلام يتم القضاء عليه بأن تستبدل به الاشتراكية.

٢٣- ستظل الاشتراكية في نزاع دائم مع العقيدة الدينية، ولن يستقر التحويل الاشتراكي الصحيح إلا بسيادة الاشتراكية على الدين، أي الاشتراكية الماركسية.

وبسرد هذه التعليمات ومحاولة قراءة متأنية للسطور وما بينها، نجد أن المخطط الشيوعي كان يهدف إلى بث الفكر الماركسي الإلحادي بشتى الطرق، فرسم مخططه على محورين أساسيين هما:

أولاً: هدم الدين بكل الوسائل المتاحة الظاهرة منها والباطنة والشريفة منها وغير الشريفة.

ثانيًا: استحداث النظام الاشتراكي باعتباره بديلاً للدين، وقادرًا على إسعاد الشعوب، وتحقيق التكافل، والعدالة الاجتماعية.

السلطات الحزبية الشيوعية والموالية لها قلبًا وقالبًا، ثم أصبح كل منهم فجأة وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي رئيسًا لبلده الحر المستقل، ومطالبًا من شعبه بالسير في الاتجاه الإسلامي، في حين أن عقله متشبع بالفكر الاشتراكي الماركسي، فكانت النتيجة اتجاه معظم هؤلاء الزعماء، أي النخب الحاكمة، لجمهوريات وسط آسيا الإسلامية، متجهة إلى العلمانية التركية كنموذج للتطبيق، ورغم هذا لا ضرر من ذلك، فالأيام كفيلة في خلق جيل واع وقادر على إعادة الروح الإسلامية لسابق عهدها في تلك البلدان، ويكفي الآن أن تسمع نداء الحق في كل وقت ومكان بلا خوف ولا وجل.. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

خلاصة القول: من الواضح أن هناك دورًا فعالاً ومؤثرًا قد لعبته الفرق الدينية والطرق الصوفية في انتشار وتثبيت الهوية الإسلامية، والحفاظ على التقاليد والتعاليم والموروثات الإسلامية في نشأة مسلمي وسط آسيا من خلال عدة محاور، منها:

ترسيخ المفاهيم الإسلامية الحقة في نفوس الشعوب التي كانت حديثة العهد بالإسلام، كما أدى تمسك المسلمين بهدفهم أمام الضغوط والمتغيرات التي كانت حولهم، وهذه الطرق المختلفة قد شكلت فيما بينها سدًا مانعًا في نفوس المسلمين، وأمام الغزو الفكري الشيوعي وأيديولوجياته الإلحادية الهدامة.

كذلك يمكن القول بأن التأثير الأيديولوجي للروس في المجتمعات الإسلامية بوسط آسيا لابد وأن يراعي فئتين خضعتا للتأثير، وهما:

أولاً: الفئة الأولى– التأثير على عامة الشعب بما فيهم رجال الدين.

ثانيًا: الفئة الثانية– التأثير على النخبة الحاكمة.

فبالنسبة للتأثير على رجال الدين وعامة الشعب، فقد سبق الإشارة إليه بأن الدين الإسلامي هو المكون الرئيس للشخصية التركستانية، بل هو القاسم المشترك في حياتهم الاجتماعية والفكرية، ومن ثم فإن التأثير العقائدي للأيديولوجية الشيوعية له وجود في عقل بعض فئات المسلمين بوسط آسيا، وإن كان الرجوع لممارسة الدين وشعائره بقوة وثبات سيحتاج لمزيد من الوقت يستعيد فيه المسلم توازنه وشخصيته وماضيه وهويته.

ويمكن القول في النهاية: إنه قد حدث تأثير أيديولوجي روسي على بعض فئات مسلمي وسط آسيا وخاصة الشباب.

أما بالنسبة للتأثير على النخبة الحاكمة وصانعي القرار السياسي، فالأمر هنا يختلف تمامًا فهذه النخبة الحاكمة هي ذاتها النخبة التي كانت تجلس على كرسي الحزب الشيوعي في بلدها، وتعتنق أفكاره، ومنفذة لسياسة

(١٨)هدى درويش، ص٣٧.

(١٩)المرجع السابق، ص٣٨.

(٢٠) سلوى عبد الحميد لطفي، مؤتمر المسلمين في آسيا الوسطى، مرجع سابق، ص٣٥.

(٢١) المرجع السابق، ص٣٧.

(٢٢)المرجع السابق، ص٣٨.

(٢٣) ويلتر كولارز، ص١٣٢.

(٢٤)المرجع السابق، ص٣١٣.

(٢٥) فوزي محمد طايل، آثار تفكك الاتحاد السوفيتي، ص١٣١.

(٢٦) صالح الخثلان، ندوة الوطن العربي كومنولث الدول المستقلة، القاهرة، جامعة الدول العربية، سنة ١٩٩٤م، ص١١٩.

(٢٧) المرجع السابق، ص١٢٠.

(٢٨) فوزي محمد طايل، ص١٤٢.

(٢٩) أحمد رائف، مرجع سابق.

(٣٠) أحمد رائف، مصدر سابق، ص٦٥.

(٣١) المرجع السابق، ص٥٨.

(٣٢) أحمد رائف، شمس الإسلام، العدد التجريبي، ص٥٦.

(٣٣) أحمد رائف، مستقبل الإسلام في روسيا وما وراء النهر، ص١٣٦.

(٣٤) المرجع السابق، ص١٥٨.

(٣٥) عبد المنعم النمر، ص١٢٨.

(٣٦) عبد المنعم النمر، ص١٢٨.

الهوامش:

(١) أحمد رائف، شمس الإسلام، ص١٣٥.

(٢) بارتولد، ص٢٠.

(٣) عبد المنعم النمر، ص١١٧.

(٤) بطروشوفسكي، الإسلام في إيران، ترجمة د/ السباعي محمد السباعي، القاهرة، كمبيوجرافيك، سنة ١٩٩٤م، ص٢٩٩.

(٥) نقشبند: كلمة فارسية، تعني مهنة النقش على المعادن، وكانت هذه المهنة هي حرفة شيخ الطريقة.

(٦) هدى دوريش، ص٣٤.

(٧) بطروشوفسكي، مرجع سابق، ص٣٣٥.

(٨) المرجع السابق، ص٣٣٧.

(٩) هدى درويش، ص٣٥.

(١٠)أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي، مرجع سابق، ص٧٣.

(١١)هدى درويش، ص٣٥.

(١٢) بطروشوفسكي، مرجع سابق، ص١٣٨.

(١٣)بطروشوفسكي، مرجع سابق، ص٢٣٠.

(١٤)المرجع السابق، ص٣٦.

(١٥) المرجع السابق، ص٣٦.

(١٦) هويدا محمد فهمي، الأقليات المسلمة والصراعات العرقية، جامعة القاهرة، مركز الدراسات الشرقية سنة ٢٠٠٠، ص٥٩.

(١٧) سلوى عبد الحمد لطفي، ص٣٥.

آسيا الوسطى والقوقاز تحت الاستعمار الروسي

الاستعمار الروسي

واعتبارًا من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي تعرَّض العالم الإسلامي عمومًا بقيادة الخلافة العثمانيَّة، وروسيا، وأوروبا، وإيران، لمتغيِّرات هائلة، كان لها أثرها المباشر على علاقات الخلافة العثمانيَّة مع مناطق آسيا الوسطى بعد سقوط القرم وقفقاسيا حتى بحر قزوين في يَدِ الروس، ويأتي على رأس هذه المتغيِّرات ضَعْفُ الخلافة العثمانيَّة، وتقسيم أملاكها إلى مناطق حماية بين الدُّول الاستعماريَّة، وانفتاح الطريق أمام الروس لاحتلال ممالك آسيا الوسطى الإسلاميَّة [266].

فقد بدأت روسيا القيصريَّة في التكالب على المسلمين في هذه المناطق، لمَّا ضَعُفَت الخلافة العثمانيَّة، وخاضت معهم حروب إبادة جماعيَّة، بدءًا من عهد إيفان الثالث (٨٨٥هـ = ١٤٨٠م) الذي نكَّل بالمسلمين، وقاد حملة كبيرة أخرج فيها المسلمين التتار من موسكو بعد أن دامت في أيديهم قرابة ٢٤٠ عامًا، ثم جاء عهد فاسيلي الثالث ابن إيفان الثالث، فطلب منه البابا أن يعجِّل بطَرْد المسلمين إلى سيبريا وتشتيتهم، واعدًا إيَّاه بملكوت السماء بالقسطنطينيَّة التي فتحهامحمد الفاتح العثماني عام ٨٥٧هـ، لكنَّ أخطر هؤلاء القياصرة كان إيفان الرابع أو "الرهيب" كما أُطْلِق عليه المسلمون هذا الاسم؛ وذلك بسبب حرب الإبادة الشاملة التي شنَّها ضدَّهم؛ فقد فرض عليهم أن يتنصروا أو يتركوا أوطانهم ويُهاجروا مثلما فعل الأسبان بمسلمي الأندلس.

كما فعل الروس ذلك مع التتار المسلمين على ضفاف نهر الفولجا ومع البشكير، وقد تحوَّل كثير من البشكير والتتار إلى النصرانيَّة؛ خوفًا على أنفسهم

---

[266] المصدر السابق ص١٢٨، ١٢٩.

(٣٧) المصدر السابق، ص١٢٩.

(٣٨) المصدر السابق، ص١٣٠.

(٣٩) المصدر السابق، ص١٣٢.

المتسامحة التي أبدتها مع المسلمين، ومنحهم الحرّيّة الدينيّة سنة (١١٨٧هـ - ١٧٧٣م)، ومن بعدها لم يَسِر القياصرة الروس على نهجها في التسامح مع المسلمين؛ فنجد نيقولا الأوّل يلجأ إلى سياسة الكبت والضغط على المسلمين، فلا يسمح ببناء المساجد، بل ويُصادر كثيرًا من أراضيهم، وتحتلّ جيوشه إقليم طشقند عاصمة إقليم الشاش، وسمرقند عاصمة تيمورلنك[٢٦٨].

الإمام منصور رافع راية الجهاد

والذي يمكن تسجيله هنا هو أن المقاومة الإسلاميّة لم تُعْدَمْ في أي من عصور القياصرة السابقينَ ولا غيرهم، وقد ظهرت في أبهى صورها في عهد كاترين، حيث ظهرت شخصيّة إسلاميّة قوقازيّة حملت على عاتقها راية الجهاد، تمثّلت فيالإمام منصور، الذي استطاع أن يُلْحِق الهزائم المتتاليّة للروس في كُلٍّ من الشيشان والداغستان، لكنّه هُزِمَ سنة ١٧٨٥م في معركة "تتارتوب"، ولكنها لم تكن هزيمة كاملة؛ لأن الإمام منصور انسحب من المعركة بعد أن شعر بأنه سيخسر نتيجة التفوّق العدديّ الكبير للروس، وعاد لمسقط رأسه في الشيشان.

وعندما بدأت بوادر الحرب الروسيّة التركيّة في عام ١٧٨٧م استنجد الأتراك بالإمام منصور فلبّى النداء، وبدأ بمهاجمة القوّات الروسيّة من الخلف في الذكرى السنويّة لمعركة "تتارتوب"، فانتصر الإمام منصور، واستطاع بمعاونة ثلاثة أفواج من قوازق الدون في إبادة الروس وهزيمتهم، إلا أن الروس استطاعوا أن ينالوا من الإمام منصور في قلعة "أنابا" على ساحل

---

[268] راجع في ذلك مصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز ص ١٣١-١٣٣.

وأولادهم، محافظين على إسلامهم سرًّا مدى ثلاثة قرون، حتى أُتيحَت الحريَّات الدينيَّة عام (١٣٢٣هـ=١٩٠٥م)، فأظهروا إسلامهم[267].

روسيا القيصرية تفرض التنصير على المسلمين

وبعد إيفان الرهيب جاء بطرس العظيم، فكانت سياسته كسلفه، ففرض التنصير على المسلمين بالقوَّة أو الْفِرَار من أراضيهم وأوطانهم، وقد بدأ بطرس العظيم (١٠٩٢ - ١١٣٨هـ = ١٦٨٢ - ١٧٢٥م) بالاتِّجاه جنوبًا إلى شمال البحر الأسود في منطقة أزوف واحتلَّها عام (١١٠٨هـ - ١٦٩٦م)، ولكن الخلافة العثمانيَّة استعادتها سنة (١١١٢هـ - ١٧٠٠م)، ولم يتمكَّن من الاستيلاء على القوقاز سنة (١١٣٥هـ - ١٧٢٢م)؛ بسبب المواجهة الشرسة التي وُاجِهَهَا من مسلميها الأشداء بقيادة رجال الطريقة النقشبنديَّة الصوفيَّة.

وقد سارت الإمبراطورة الروسيَّة "حنا" (١١٥١ - ١١٦٩هـ = ١٧٣٨ - ١٧٥٥م) على نهج إيفان الرهيب، ففرضت التنصير على المجرى الأوسط لنهر الفولجا، وصادرت الأوقاف، وأغلقت المدارس، وقد أصدرت أمرًا بإعفاء المرتدِّين عن الإسلام إلى النصرانيَّة من الضرائب والخدمة العسكريَّة، ومعاملتهم معاملة حسنة، وقد مُنِعَ المسلمون في عهدها من إقامة شعائرهم الدينيَّة، وأُغْلِقَت جميع مدارسهم ومساجدهم، حتى إن أطفالهم الصغار كانوا يُخطفون ويُوضعون في المدارس التبشيريَّة، حتى يَنْشَئُوا على النصرانيَّة الأرثوذكسيَّة.

وفي عهد كاترين (١١٧٦ - ١٢١١هـ = ١٧٦٢ - ١٧٩٦م) تمَّت أضخم عمليَّات التوسُّع على حساب أرض المسلمين، ففي فترة حكمها قامت بمصادرة مئات الألوف من أخصب أراضي تتار القرم، رغم السياسة

---

[267] محمود محروس قشطة: الاحتلال الروسي للجمهوريات الإسلامية، مؤتمر المسلمون في آسيا والقوقاز، جامعة الأزهر ٢٨-٣٠ سبتمبر ١٩٩٣، المجلد الثاني ص ١٢٥، ومصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز ص ١٣٠، ١٣١.

تأمينًا للوضع العسكريّ في المنطقة، وتمهيدًا للتقدُّم الروسيّ في خانات آسيا الوسطى التي كانت مجهولة تمامًا بالنسبة للدُّول الأوروبيَّة والعالم الغربي.

ثم إن روسيا أرادت بعد هزيمتها في حرب القرم من قِبَلِ فرنسا وبريطانيا أن تُعيدَ تحقيق الأمجاد العسكريَّة، والانتصارات الروسيَّة، ولذلك عمل ألكسندر الثاني (١٨٥٥-١٨٨١م) على تقوية وتحديث الجيش الروسيّ، فأصدر في عام ١٨٧٤م قانون الخدمة العسكريَّة.

وهذا فضلاً عن رغبة الروس في نشر مذهبهم الأرثوذوكسي، ومحاربة الخانات الإسلاميَّة، وزعزعة العقيدة الإسلاميَّة، وتأمين الحدود الجنوبيَّة؛ حيث أدرك قياصرة الروس خطر الإسلام، وأنهم هم الورثة الحقيقيون للدولة البيزنطيَّة، وحُمَاة المذهب الأرثوذكسي ودُعَاتُه!

ب) ظروف دُوليَّة : حيث كانت حرب القَرم التي انهزمت فيها روسيا من أهمِّ الأسباب التي قادتها إلى التوسُّع الجغرافيّ والعقائديّ في وَسَط آسيا، وذلك أنها قضت على هيبة روسيا دُوَلِيًّا ولفترة طويلة، وقضت لفترة على التوسُّع الروسيّ غربًا، وبسببها تخلَّت روسيا مؤقَّتًا عن فكرة تقسيم الخلافة العثمانيَّة، ومن ثَمَّ نشطت للتوسُّع في آسيا الوسطى.

البحر الأسود، فخرَّ البطل شهيدًا في سبيل الله في عام ١٧٩٤م بعد جهاد ضدَّ القيصريَّة الروسيَّة دام ما يقرب من عشر سنين [269].

عوامل التوسع الروسي في القوقاز

والحقيقة أنه كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت على التوسُّع الروسيِّ في آسيا الوسطى والقوقاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نلخصها في عاملَيْن [270]:

عامل داخلي :حيث ركَّز القيصر نيقولا الأول (١٨٢٥ - ١٨٥٥م) جهوده للسيطرة على منطقة القوقاز، ولتحقيق هذا الغرض تمَّ بناء خطٍّ من الحصون لمحاصرة هذه القبائل والقضاء على مقاومتها، وبانتهاء حرب القرم [271] عام ١٨٥٦م تمَّ تكثيف الحملات العسكريَّة ضدَّ الشيخ شامل، [272] حتى اضطر للاستسلام في عام ١٨٥٩م، وكان القضاء على الشيخ شامل وثورته

---

[269] مصطفى دسوقي كسبة: الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين ص٧٨-٨١، ومحمود عبد الرحمن: تاريخ القوقاز ص ٥٦-٦٠.

[270] انظر إلهام محمد ذهني: التوسع الروسي في خانات آسيا الوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مؤتمر المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، المجلد الثاني ص ١٤٤.

[271] حرب القرم هي حرب قامت بين روسيا والسلطنة العثمانية في ٢٨ مارس عام ١٨٥٣م، واستمرَّت حتى ١٨٥٦م. ودخلت بريطانيا وفرنسا الحرب إلى جانب الخلافة العثمانية في ١٨٥٤، فهُزمت روسيا وعقدت معاهدة باريس في مارس عام ١٨٥٦م التي أقرَّت روسيا على جزء من أراضيها لدولة مولدافيا، وفرض حياد البحر الأسود، وحرِّيَّة الملاحة في نهر الدانوب.

[272] الإمام المجاهد شامل وُلِدَ في ٨/٢١ /١٧٩٧، وحمل شعلة الجهاد ضدَّ الروس في منطقة الشيشان والقوقاز في القرن التاسع عشر، لكنه بعد حركة نشطة للجهاد، اضطر للاستسلام عام ١٨٥٩م.

وكان معنى تحديد النفوذ الروسي في شرق البلقان أن الطريق أصبح مغلقًا أمام الروس في البلقان لوجود النمسا في غربه، مما ساعد تزايد اتّجاه روسيا نحو آسيا الوسطى.

ومن المهمّ هنا ألا نغفُل أن فترة التوسُّع الروسيّ في النصف الثاني من القرن التّاسع عشر جاءت مواكبة لاتّساع ونموّ الاستعمار الأوروبي واتّجاه الدُّوَل الأوروبيَّة إلى التوسُّع في قارَّتَيْ آسيا وأفريقيا، متذرِّعينَ بالمبادئ الإنسانيَّة في آسيا وأفريقيا، ومتَّخِذينَ منها ستارًا لإخفاء دوافعهم، وهو ما لجأت إليه روسيا أيضًا؛ حيث أكَّد المسئولون الروس أن هدفهم من التوسُّع في آسيا الوسطى هو إدخال الحضارة المدنيَّة إلى الشعوب الإسلاميَّة!

وما كان من أمر فقد حقَّق الروس أهدافهم من التوسُّع، وتمَّ إضافة مساحات كبيرة من الأراضي ومن الشعوب دخلت في نطاق الإمبراطوريَّة الروسيَّة، وقد أفادت روسيا كثيرًا من الثروات الاقتصاديَّة لهذه المناطق، كما سيطرت على المراكز التِّجاريَّة المهمَّة مثل سمرقند وطشقند، ولجأت إلى محو هُوَيَّة مناطق الخانات، فقسَّمت بعضهم إلى عدد من الوَحَدَات الإداريَّة، وأدمجت البعض الآخر، وأصبحت إدارة وسط آسيا تابعة لوزارة الحرب التي عيَّنت حاكمًا عامًّا عليها [274].

وما يمكن تسجيله هنا أيضًا هو أن روسيا واجهت مقاومةً إسلاميَّة عنيفة من قِبَلِ حُكَّام الخانات، كانت أقواها وأعنفها مقاومة التركمان في خيوه؛

---

[274] راجع مصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز ص ١٣٣ – ١٤٤.

التدخل الروسي في شئون الدولة العثمانية

على أن هذا الاتِّجاه قد قَوِيَ بعد انتهاء الحرب الروسيَّة التركيَّة، والتي كانت قد نشبت بسبب انتهاز روسيا لنشوب ثورة في البوسنة والهرسك ضدَّ الحكم العثمانيِّ، فتدخَّلت لصالح الثوَّار، وعَمِلَتْ على إثارة رُوح العداء بين الطرفين، ثم دَخَلَت الصربُ والجبلُ الأسود في صراع مع الخلافة العثمانيَّة في سنة ١٨٧٦م، وانتهزت روسيا الفرصة وأعلنت ضرورة تدخُّلها لحماية مسيحي الخلافة العثمانيَّة، وأثارت العواصم الأوروبيَّة لذلك، فوجَّهت الدُّول الأوروبيَّة عام ١٨٧٧م إنذارًا جماعيًّا إلى الخلافة العثمانيَّة، طالبت فيه بعقد صلح مع الجبل الأسود، وهو ما رفضته، فاشتعلت الحرب بينها وبين روسيا، انتهت بهزيمة الخلافة العثمانيَّة عام ١٨٧٧م؛ حيث عجزت عن مقاومة الجيوش الروسيَّة، واضطر السلطان عبد الحميد الأول إلى قَبول معاهدة سان ستفانو سنة ١٨٧٨م،[٢٧٣] ولكنها قُوبِلَتْ باعتراض الدُّولِ الأوروبيَّة، فتمَّ عقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م، الذي أبقى النفوذ الروسي في شرقي البلقان، مع وجود نمساوي في غربي البلقان.

---

[273] بمقتضى المعاهدة استولت روسيا على قارس وباخوم وأرضروم وأردهان بايزيد في آسيا وفي أوروبا بسارابيا ومصبِّ الدانوب، ووضعت روسيا نظامًا جديدًا لمرور السفن في البسفور والدرنديل، رُوعِيَ فيه تحقيق مصالحها التِّجاريَّة والحربيَّة، وفرضت غرامة كبيرة على الخلافة العثمانيَّة، كذلك أدَّت هذه المعاهدة إلى استقلال الجبل الأسود مع استقلال رومانيا والصرب، ووضع البوسنة والهرسك تحت مراقبة روسيا والنمسا، كما أدَّت هذه المعاهدة إلى ظهور دولة بلغاريَّة أكبر من اللازم، وكانت هذه الدولة مخلب قطٍّ لروسيا، فتعاونا معًا على الإجهاز على الخلافة العثمانيَّة؛ لتصبح تحت التوجيه الروسيِّ، فيصبح التوازن الدُّوَلي في المنطقة لصالح روسيا بشكل حادٍّ، وهو ما رفضته دول أوروبا. انظر مصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، هامش ص ١٤١.

٢- استيلاء البنوك الروسيَّة على ما تبقَّى من أراضي الفلاَّحين في التركستان، بسبب عدم قدرتهم على سداد ما اقترضوه من البنوك.

٣- نَشْر روسيا لثقافتها على الشعوب المحتلَّة؛ وذلك للقضاء على الوجود الإسلاميِّ في دول آسيا الوسطى.

٤- إغلاق المدارس الوطنيَّة وفتح المدارس الروسيَّة، وفرض التدريس باللغة الروسيَّة.

٥- إصدار بعض الصحف الدعائيَّة التي تشيد بحكمهم، وكان من بينها صحيفة "ولايت تركستان" التي كان يقوم على تحريرها "سترومون[278]."

٦- التبشير بالديانة المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة على نطاق واسع؛ لتحويل المسلمين عن دينهم[279].

---

[278] تلميذ المستشرق الروسي المعروف "ألمنسكي."

[279] انظر مصطفى دسوقي كسبة: المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز ص ١٤٨، ١٤٩.

حيث أدركت هذه الخاناتُ خطورة الغزو الروسيِّ، كما أدركت أن هذا التحدّي ليس تحدّيًا عسكريًّا فحسب، وإنما هو تحدٌ أخطر من ذلك بكثير، فهو تحدٌ حضاريٌّ هدفه القضاء على الحضارة الإسلاميَّة وإحلال الحضارة الروسيَّة محلَّها، ومن ثَمَّ واجه الروس مقاومة عنيفة، لم يَسَعْهم إلا التعبير عنها وعن زعمائها وقادتها بلفظ "البرابرة[275]."

على أن الروس تمكَّنوا بفضل قوَّتهم العسكريَّة من إخضاع المنطقة، وقد لجئوا إلى استخدام القسوة من قتل وإرهاب وغيره، وخصُّوا لحركة التوسُّع أشخاصًا عُرِفُوا بالمقدرة العسكريَّة، أمثال: بيروفسكي، وشوبيليف، ولوماكين، ممَّن يؤمنون بسياسة استخدام القوَّة العسكريَّة لتحقيق أحلام وأطماع روسيا التوسُّعيَّة، وقد سعى هؤلاء الضبَّاط لتحقيق أمجاد شخصيَّة لهم، فَسَعَوْا لضمِّ المزيد من الأراضي، وَحَثُّوا حكومَتَهم من خلال تقاريرهم العديدة على الغزو والتوسُّع[276].

السياسات الروسية عقب الاحتلال

هذا وقد انتهجت السياسة الروسيَّة في آسيا الوسطى بعد احتلالها (١٨٩٠ – ١٩١٧م) مجموعة من السياسات الاستعماريَّة، نُجْمِلُهَا فيما يلي[277]:

١- حركة استعمار واستيطان روسيَّة بدأت بنزع الأراضي من أصحابها وإعطائها لأكثر من مليون ونصف المليون من المعدَمِينَ الروس.

---

[275] المصدر السابق ص ١٤٤.

[276] إلهام محمد ذهني: التوسع الروسي في خانات آسيا الوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مؤتمر المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، المجلد الثاني ص ١٦٧، ١٦٨.

[277] انظر كمال السعيد: الإسلام في آسيا الوسطى ورقة تاريخية ص ٤٣، ٤٤.

الفصل التاسع

آسيا الوسطى والاستعمار الروسي

وضع الروس المنطقة تحت إشراف إدارة عسكرية تخضع لها حكومة عموم تركستان، على حين بقيت إمارة بخاري، وخانية خيوة تتمتعان باستقلال ذاتي، وأعفوا السكان من الخدمة العسكرية الإلزامية، وتركوهم يخضعون لتشريعاتهم وقوانينهم الخاصة. كما حاولوا عدم صهر السكان بالمجتمع الروسي، وعملوا على عزل تركستان وحمايتها من تأثير تتار الفولغا.

وكان وضع المنطقة يبدو عليه صفة الاستعمار من حيث التمييز ومحاولة استغلال السكان وأرضهم دون تقديم أية خدمات لهم، ولذا فقد بقي أصحاب النفوذ محافظين على عاداتهم وتقاليده وكرههم للروس، وتمسكهم بالإسلام.

وتأسس في طاشقند عام ١٣٣٥هـ (١٩١٧م) حزب الشورى الإسلامية، ويدعو إلى الإسلام والانفصال عن روسيا، كما كان حزب الشباب البخاريين منذ عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) ويدعو إلى كره الروس وأمير بخاري الذي يرضى بحماية الروس، ويقتصر نشاط هذا الحزب على إمارة بخاري.

كانت الأحزاب ضعيفة التنظيم ولكنها مرتبطة بالإسلام على حين كانت برامجها الاجتماعية اشتراكية، الأمر الذي يدل على عدم الوعي الكامل بالإسلام.

وعندما قامت الثورة الشيوعية مع مطلع عام ١٣٣٦هـ (١٩١٧م) سيطر الشيوعيون على الحكم في طاشقند، وساعدهم في ذلك المستوطنون الروس، جميعًا بصفتهم نصارى، فهم ضد المسلمين الذي يؤلفون غالبية سكان تركستان، وأبعد المسلمون نهائيًا عن السلطة، وبعد شهر واحد عقد المسلمون مجلسًا شعبيًا في (خوقند)، وأعلنوا استقلال تركستان بينما بقيت طاشقند بيد الشيوعيين، وبعد أقل من ثلاثة أشهر تمكن الشيوعيون من دخول خوقند،

ويتألف السكان من المجموعات التالية:

الأوزبك	ويبلغ عددهم	١٠,٥٦٩,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٦٨,٧% من السكان
التتار	ويبلغ عددهم	٦٤٩,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٤,٣% من السكان
القازاق	ويبلغ عددهم	٦٢٠,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٤,٠% من السكان
الطاجيك	ويبلغ عددهم	٩٥,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٣,٩% من السكان
الكاراكلباك	ويبلغ عددهم	٢٩٨,٠٠٠	ويشكلون نسبة	١,٩% من السكان
القيرغيز	ويبلغ عددهم	١٤٢,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٠,٩% من السكان
التركمان	ويبلغ عددهم	٩٢,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٠,٦% من السكان
مجموعات أخرى	ويبلغ عددهم	٣٨١,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٢,٦% من السكان
	ويبلغ عددهم	١٣,٥٢٦,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٨٦,٨%

وهم من المسلمين السنة، وتوجد بينهم مجموعة من الشيعة، يقدر عددها بمائة ألف، ويعيش أتباعها في كل من سمرقند، وطاشقند، وبخاري. ويقيم الأوزبك عادة في الريف.

فهدموها، وعملوا بأهلها قتلاً، وبعد شهر آخر شن الشيوعيون هجومًا على أمير بخاري، ولكنهم فشلوا في هجومهم هذا رغم دعم حزب الشباب البخاريين لهم.

وحدثت حركة في وادي فرغانة، وانضم إليها أنور باشا، وزير خارجية تركية السابق، و(زكي والدي طوقان) أحد زعماء باشكيريا، ولقيت هذه الحركة دعمًا من قبائل القيرغيز، والأوزبك، والتركمان، وعرفت هذه الحركة باسم البصمجية، وهو اسم أطلقة الروس على هؤلاء المسلمين، ويعني اللصوص، واستطاع الجيش الأحمر دخول مدينة بخاري في مطلع عام ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م) وقضى على الحركة بعد عامين، وقتل أنور باشا يوم عيد الأضحى عام ١٣٤٠.

وقسم الروس المنطقة إلى الجمهوريات التالية:

١- جمهورية أوزبكستان:

وتأسست في مطلع ربيع الأول عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)، ثم ضمت إليها بخاري، وخوارزم، وفصلت عنها بلاد الطاجيك، وألحقت بها جمهورية كاراكلباكيا. تبلغ مساحة هذه الجمهورية ٤٠٨,٠٠٠ كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها ١٥,٣٩١,٠٠٠ نسمة حسب إحصاء عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م)، وعاصمتها مدينة طاشقند التي بلغ عدد سكانها ١,٧٨٥,٠٠٠ نسمة، وتعد رابع مدينة سكانًا في الإمبراطورية كلها بعد موسكو، لينغراد، وكييف.

ويتألف سكان الجمهورية من المجموعات التالية:

الطاجيك	ويبلغ عددهم	٢,٢٣٧,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٥٨,٥% من السكان
الأوزبك	ويبلغ عددهم	٨٧٣,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٢٣,٠% من السكان
التتار	ويبلغ عددهم	٨٠,٠٠٠	ويشكلون نسبة	% من السكان
القيرغيز	ويبلغ عددهم	٤٨,٠٠٠	ويشكلون نسبة	١,٢% من السكان
التركمان	ويبلغ عددهم	١٤,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٠,٣% من السكان
		٣,٢٥٢,٠٠٠		٨٥,٢%

وهم من المسلمين السنة، وتوجد جماعات من الشيعة أكثرها من عنصر الطاجيك، ويكثرون في العاصمة (دوشامبي)، وبعض المدن، كما توجد جماعة من الإسماعيلية النزارية من أتباع آغا خان، ويسكنون إقليم (باداخشان) في باميز.

أما النصارى فهم المستعمرون الدخلاء وهم:

الروس	ويبلغ عددهم	٣٩٥,٠٠٠	ويشكلون نسبة	١٠,٥% من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم	٣٦,٠٠٠	ويشكلون نسبة	١,٠% من السكان
		٤٣١,٠٠٠		١١,٥%

ويوجد عدد من اليهود يبلغ عددهم ١٥,٠٠٠ ويشكلون نسبة ٠,٤% من السكان.

أما اللغة الطاجيكية فهي فارسية، وكانت بالحرف العربي حتى عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م)، وبعدها أصبحت تكتب بالحرف الكيريلي. ولكن شعوب الباميز يتكلمون لغة إيرانية.

أما الباقي فهم من المستعمرين النصارى إضافة إلى الكوريين، ويقيمون عادة في المدن ويتوزعون كما يلي:

الروس	ويبلغ عددهم	١,٦٦٦,٠٠٠	ويشكلون نسبة	١٠,٨% من السكان
الأوكرانيون	ويبلغ عددهم	١٦٣,٠٠٠	ويشكلون نسبة	١,١% من السكان
الكوريون	ويبلغ عددهم	١١٤,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٠,٧% من السكان
		١٩٤٣,٠٠٠		١٢,٦%

ثم يوجد اليهود ويبلغ عددهم ١٠٠,٠٠٠ ويشكلون نسبة ٠,٦%.

ويتكلم الأوزبك اللغة الأوزبكية، وهي من المجموعة التركية، وكانت تكتب بالحرف العربي، ثم استبدل به الحرف اللاتيني عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م).

وتتبع أوبكستان جمهورية (كاراكلباكيا) ذات الاستقلال الذاتي والتي تبلغ مساحتها ١٦٥,٠٠٠ كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها حسب إحصاء عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) ما يقدر بمليون تقريبًا (٩٠٥,٠٠٠)، ويشكل المسلمون بينهم ٩٥%، بينما يشكل الروس ٢,٣، وعاصمتها مدينة (نوخوس) التي تقع على نهر جيحون عند بداية تفرعه قبل مصبه في بحيرة خوارزم.

٢- جمهورية طاجيكستان:

وتأسست في ١٢ ربيع الأول عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)، ثم أضيف إليها قسم من هضبة بامير، وهو إقليم (باداخشان) ذو الحكم الذاتي. تبلغ مساحة الجمهورية ١٤٣,٠٠٠ كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها ٣,٨٠٦,٠٠٠ حسب إحصاء ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م)، وعاصمتها مدينة (دوشامبي) التي بلغ عدد سكانها في العالم نفسه ٤٩٣,٠٠٠،

أما النصارى وهم من المستعمرين الدخلاء وهم:

الروس ويبلغ عددهم ٧١٢,٠٠٠ ويشكلون نسبة ٢٠,٣% من السكان

الأوكرانيون ويبلغ عددهم ٨٩,٠٠٠ ويشكلون نسبة ٢,٣% من السكان

٨٠١,٠٠٠

وعاصمة البلاد هي مدينة (فرونزي).

٤- جمهورية تركمانستان:

ينتمي التركمان إلى قبيلة الأوغوز التركية، وهم شعب محارب، قاتلوا دولة إيران الشيعية مدة قرن من الزمن، ووقفوا في وجه خانة خوارزم، وصارعوا الروس ودمروا في قلعة (كوب تيب) عام ١٢٩٧هـ (١٨٩٧م)، وبعد هزيمتهم أمام الروس تعرضوا لمجازر رهيبة عام ١٢٩٩هـ (١٨٨١م).

اشترك التركمان في حركة البصمجية ١٣٣٥-١٣٤٠هـ (١٩١٧-١٩٢٢م)، وتمردوا هم ضد الروس من ١٣٤٥-١٣٥٠هـ (١٩٢٧-١٩٣٢م). ويشترك التركمان في طريقة عيش واحدة، وكلمة مسلم تستعمل عندهم للدلالة عليهم، فهناك مزج بين الدين والعنصر.

ويتبع طاجيكستان منطقة باداخشان ذات الحكم الذاتي، وتبلغ مساحتها ٦٣,٧٠٠ كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها ١٢٧,٠٠٠ حسب إحصاء ١٣٩٩هـ (١٩٣٩م)، ويتألف السكان من المجموعات التالية:

١١٥,٠٠٠ من الطاجيك، و ٨,٥٠٠ من القيرغيز، و ١,٧٨٠ من الروس، وفيها الإسماعيلي النزاريون.

٣- جمهورية قيرغيزيا:

وأصبحت جمهورية اتحادية منذ عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م)، وكانت من قبل جزءًا من جمهورية روسيا الاتحادية أي مرتبطة بموسكو، ثم منطقة ذات حكم ذاتي، تبلغ مساحتها ١٩٧,٠٠٠ كيلو متر مربع ويبلغ عدد سكانها ٣,٥٢٩,٠٠٠ نسمة حسب إحصاء ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م)، ويتألف السكان من المجموعات التالية:

القيرغيز	ويبلغ عددهم	١,٦٨٧,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٤٧,٩% من السكان
الأوزبك	ويبلغ عددهم	٩١٢,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٢٥,٩% من السكان
التتار	ويبلغ عددهم	٧٢,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٢,٠% من السكان
الأويغور	ويبلغ عددهم	٣٠,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٠,٨% من السكان
القازاق	ويبلغ عددهم	٢٧,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٠,٨% من السكان
الطاجيك	ويبلغ عددهم	٢٣,٠٠٠	ويشكلون نسبة	٠,٧% من السكان
		٢,٧٢٨,٠٠٠		٧٧,٤% من السكان

الأفراح، وحفلات الزفاف، بل تعدتها إلى استقبال السلاطين والرسل على أبواب العاصمة، وللتعبير عن مدى أهمية الغناء، فقد استعملوه في الحروب، فكانوا يضعون المغنيات خلف جيوشهم، للإعلان عن فرحة النصر بالغناء، ومن عادة أهل هذه البلاد في أفراحهم أن تعقد مجالس الغناء، حيث يأتي المغنون يغنون بالدفوف والطبول، وتقوم النساء بالرقص بين يدى الزوجين، كذلك شغفت بعض نساء القصور بالغناء والموسيقى، فكانت تركان خاتون تعقد مجالس الأدب والموسيقى في قصرها الخاص، مما أثر على رواج سوق الغناء والطرب رواجًا كبيرًا، وقد وقع العديد من الأغنياء في غرام المغنيات، لما تمتعن به من صوت رخيم، وجمال الشكل، ولذا بذلوا لهن الكثير من الممتلكات والأراضي الزراعية.

وبناء على ذلك، فقد رأى بعض الفقهاء في هذه العصور ضرورة القضاء على حانات الغناء والرقص، وإغلاق مواخير الشرب، حتى لا تنتشر الرذيلة، ويتفشى الزنا، ولما ينتج عنها من مفاسد وفتن ولهو وعربدة، وغيرها من الموبقات الاجتماعية.

المآتم ومجالس العزاء:

شاركت المرأة في نوع آخر من أنواع المناسبات الاجتماعية، وهو المآتم والعزاء في المتوفى ذكرًا كان أم أنثى، فلم تقتصر هذه المجالس على الرجال وحدهم، بل تعدته إلى مشاركة النساء، وقد كانت كلمة "يوغ" هي المصطلح القديم، ومعناه ذكرى الموتى، وكانت العادة المتبعة في كثير من الأحزان، أنه عند وفاة شخص عزيز أن تتبعه النساء، وتقمن بالنواح خلف الجنازة، ويلطمن الخدود حتى مكان المقابر، ويرفعن صوتهن بالنواح، تتقدمهن سيدة عجوزة تسمى نائحة، تقوم بهذه الأفعال، وتردد باقي النساء مثل ما تقول.

ومن العادات المعروفة في المآتم، أن تقدم بعض السيدات الأطعمة لأسرة المتوفى، ويسمى هذا واجب العزاء، وكثيرًا ما شارك قصر الخلافة في هذا الواجب؛ نظرًا لمكانة المتوفى ومنزلة عائلته، وهناك مجتمع آخر من

المرأة ومظاهر الحياة العامة في آسيا الوسطى

شاركت المرأة في آسيا الوسطى في الحياة الاجتماعية العامة، فهي جزء لا يتجزأ من المجتمع، سواء كانت من نساء قصر الملك، أو من النساء العاديات في المجتمع، وقد قامت بدور بارز فيما امتلكت من ثروات وأموال، وعقل متفتح، وفكر صائب.. وهكذا.

مجالس الوعظ:

كثرت مجالس الوعظ في آسيا الوسطى، إذ انتشرت في كافة المناطق بها، فالواعظ يقوم بشرح وتفسير آيات من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وكافة المسائل الدينية العامة، ويعظ الناس في شئونهم العامة.

ولما كان من الضروري منع الرجال من الاختلاط بالنساء في المجالس، حتى لا يؤدي وجودهم إلى الفتنة، وانشغال النساء عما يقال من مسائل دينية، لذا انفردت النساء بمجالس للوعظ خاصة بهن، اتخذت طابعًا خاصًا بأن تكون الواعظة سيدة متفقهة زاهدة صالحة متدينة، والملبس محتشمًا، لذا خُصصت لنساء القصور مجالس كن يعقدنها في أماكن خاصة بهن، فلم يكن يمر يوم دون عقد هذه المجالس، فكان هناك مجالس وعظ قامت بها نساء عدة، أمثال: السيدة أم كلثوم بنت إبراهيم بن هزاز، في مدينة جرجان، والسيدة ميمونة بنت علي بن عبد الله الواعظة الشاهجانية، والسيدة فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلون الرازي، وأيضًا السيدة جليلة بنت علي بن الحسن بن علي الشحري، التي كان لها طابع خاص في وعظها.

مجالس الغناء:

لقد اكتسبت المرأة شهرة كبيرة في ضروب الطرب والغناء، حتى صار الغناء ضرورة من ضروريات الحياة لا يعيشن بدونه، سواء في قصور الحكام، أو في خانات اللهو والمجون، وكانت المرأة تهتم بملابسها، وترتدي أبهى حللها في هذه المجالس، ولم تقتصر حفلات الغناء والمرح على إقامة

الفصل العاشر

"إسرائيل" ودول آسيا الوسطى مصالح متبادلة أم استغلال صهيوني

تتمتع منطقة آسيا الوسطى المكونة من: "كازاخستان، أوزبكستان، طاجيكستان، تركمانستان، قرغيزستان" بأهمية استراتيجية وجيوسياسية كبيرة، وخاصة للمنطقة العربية؛ إذ تعد المنطقة امتدادًا طبيعيًا للأمن القومي العربي، فضلاً عن ثرواتها الثمينة، سواء فيما يتعلق بإنتاجها من النفط أو المنتجات الزراعية.

ورغم هذه الأهمية إلا أن مستوى العلاقات بين المنطقة والمحيط العربي مازال ضعيفًا، والحضور العربي هناك باهت جدًا، ولم يخرج عن إطار دبلوماسي في بعض البلدان هناك، وحتى التمثيل الدبلوماسي هناك لا يقوم بدور التقارب، وتعميق العلاقات بالقدر المطلوب.

ولم يتضح بعد لماذا هذا الحضور العربي الباهت في منطقة لها علاقات تاريخية وثقافية متشابهة ومترابطة، وبمنطقة أمدت هذا العالم بكنوز حضارية وثقافية لم تتكرر تاريخيًا، بل وأمدته أيضًا بكوكبة من العلماء كان لهم دور كبير في تأصيل العلوم المختلفة من حديث وطب وفلك وأدب...إلخ.

ومن الأمور الخارجية التي تعمل على إبعاد المستثمر العربي، أو تحجم تواجده هناك السياسات الغربية والإسرائيلية في المنطقة، والتي تنحصر في التواجد الأمريكي المبكر، والسعي الإسرائيلي لتثبيت الأقدام هناك بمساعدة أمريكية معروفة مهدت الطريق للشركات الإسرائيلية، وعقدت الاتفاقيات بين هذه الدول، وعلى رأسها إسرائيل، وبين المنطقة فجر استقلالها، بسبق معروف وملحوظ للحضور العربي، ما جعل المنطقة، آسيا الوسطى، ترتبط أكثر وتتقرب إلى إسرائيل التي ساعدتها- من وجهة نظرها- اقتصاديًا في بدايات الاستقلال.

مجتمعات آسيا الوسطى يختلف فيه حزن المرأة، فهي تعيش في حداد تام، ومآتم قائمة، فليس لها الحق أن تتزوج بعد أن يموت زوجها، فإما أن تبقى أرملة طول حياتها، وإما أن تحرق نفسها، وهو أفضل حال، لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها، كذلك جرت العادة عندهم عند وفاة أحد الملوك، أو كبار القوم، أن تدفن مع المتوفى إحدى نسائه أو جواريه، بشرط أن تدفن على قيد الحياة، ولهم طقوس خاصة في عملية الدفن هذه.

المرأة والمنشآت المعمارية:

لم يقتصر بناء القصور الفخمة والمنشآت الخيرية التعليمية كالمدارس والكتاتيب والمساجد على الرجال من الحكام والسلاطين فحسب، بل شيدت النساء في آسيا على مدى القرون عدة مبان كانت مضرب المثل في الروعة والجمال، وحرصن على أن تحاكي المباني والمنشآت التي أقامها أندادهم من الرجال، سواء من حيث فخامة البناء، أو مساحة المبنى، أو تزيينه بنفس الرسوم الزخرفية، وتأسيسه بأفخر المفروشات، وكذلك خصصوا النفقات العالية لإقامة الأربطة المختلفة، ومن العادة أنه إذا تكاملت عمارة مبنى، أو مؤسسة جديدة تفرش بالفرش الجديدة، والأثاث الرائع، وتستدعي صاحبة البناء مقرئ القرآن والفقهاء والمتصوفة لتلاوة القرآن الكريم على مدى ثلاثة أيام متتالية؛ للتبرك بالذكر الحكيم، وابتهاجًا بالمبنى الجديد، هذا بالإضافة إلى مد الأسمطة والولائم طوال هذه الفترة.

وصفوة القول، فإن المرأة في آسيا الوسطى لعبت دورًا بارزًا، وشاركت مشاركة فعالة في الحياة العامة والاجتماعية، سواء أكانت من سيدات القصور، أم من النساء العاديات، وظهر دورها بصورة واضحة كمغنية في مجالس الغناء والرقص، وكمتدينة في مجالس الوعظ والإرشاد، أو سيدة مكلومة في المآتم والحداد، أو سيدة إنتاج في المنشآت المعمارية.

٥- سنّت قوانين حماية تلك الاستثمارات، والإعفاءات الجمركية، والازدواج الضريبي وغيرها.

كل هذا عمل على جذب الشركات الإسرائيلية ومعها- طبعًا- الأفراد اليهود من دول كثيرة لتلك الجمهوريات، واستطاع رجال الأعمال هؤلاء فتح مؤسسات ومكاتب تجارية تشتري وتبيع وتستثمر في كل مجال أياديها، وتركز هذه الشركات أعمالها في مجالات هامة وحيوية- كما ذكرنا- ومن أهمها: الطاقة (النفط والغاز الطبيعي)، المعادن والثروة الباطنية، والزراعة والثروة الحيوانية، والصناعة، والاتصالات، والبنوك والأنظمة المالية والمصرفية، والإدارة والتنمية البشرية، والطب والرعاية الصحية، والفضاء والأبحاث العلمية وغيرها، وخلال سنوات قليلة جدًا ارتفع حجم التبادل التجاري بين تلك الدول وإسرائيل، وظل هكذا في ازدياد حتى اليوم، وأصبح هناك تناسب طردي كلما انسحب المستثمر العربي تواجد نظيره الإسرائيلي بقوة وباستراتيجية مستقبلية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد الاقتصادي وفقط، لكن تم تنفيذ الأجندة الصهيونية المعروفة الأهداف والاستراتيجيات، فهي لم تأت من أجل "حفنة" بترول ومعادن، بل الدور الأساسي الذي يساعد فيه جميع اليهود هو البعد العسكري الذي يصاحبه بعدًا استخباراتيًا، لاسيما وأن المنطقة قريبة من إيران العدو التاريخي لإسرائيل.

وساعد على هذا التواجد الاستخباراتي والعسكري ما قامت به الإدارة الأمريكية من حروب ضد ما أسمته "الإرهاب" أو الأصولية الإسلامية، ما عمل على توفير مظلة جديدة لإطلاق يد الكيان الصهيوني في نشاط عسكري استخباري محموم في آسيا الوسطى، في وقت بدأت فيه واشنطن بتأسيس قواعد عسكرية في أوزبكستان وغيرها من هذه الدول ضمن استراتيجية تستهدف توسيع الهيمنة الأمريكية في آسيا وبسط نفوذها، واستكمال حلقات السيطرة والهيمنة العالمية.

"إسرائيل".. حضور دائم وقوي

أدى هذا الغياب العربي عن هذه المنطقة الهامة، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إلى فتح الباب على مصراعيه لإسرائيل، في اختراق المنطقة من خلال إقامة مشروعات عملاقة، وتقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية، وتكثيف الزيارات الرسمية في سباق مع الزمن لتثبيت أقدامها في مشروعات استثمارية قوية وصلت لحد الهيمنة في أهم المجالات مثل: الطاقة "النفط والغاز الطبيعي"، خاصة أن هذه المنطقة غنية جدًا بمصادر الطاقة، ولها تصنيفات عالمية في استخراج النفط والغاز الطبيعي.

ولم تكتف إسرائيل بمجرد تواجد استثماري يشمل عدة شركات، لكنها سعت جاهدة إلى تواجد حقيقي ورسمي يسمح لها بتنفيذ أجندتها فيما بعد على كافة المستويات، ولتثبيت هذا التواجد أخذت حكومتها بعض الإجراءات، ومنها:

١- تنظيم هجرات يهودية من بعض تلك الجمهوريات إلى إسرائيل لاستغلال الموروث الديني في بناء جسور من العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٢- تبادلت إسرائيل العلاقات على المستوى الرسمي، والتي بدأت بقيام الوفود الحكومية في إسرائيل بزيارات لتلك الدول، وتوقيع الاتفاقيات الاقتصادية معها لتفتح الطريق أمام الشركات الإسرائيلية لغزو تلك الجمهوريات.

٣- ولم تكن هذه الاتفاقيات مجرد أوراق تنسى مع الزمن كعادة الوضع العربي، لكنها- الحكومة الإسرائيلية- أنشأت غرفة للتجارة والصناعة، خاصة فقط بالعلاقات مع دول آسيا الوسطى.

٤- بل وأنشأت بنك المعلومات الاقتصادية، ودليلاً للمجالات التي يستطيع الإسرائيليون الاستثمار فيها.

وهكذا كانت إسرائيل تحقق تغلغلاً سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا مثل البعد الاتساع والعمق في أوزبكستان طوال التسعينيات، وضع أساسًا قويًا لقيام تعاون أمني واسع النطاق في النصف الثاني من العقد المنصرم وبرعاية أمريكية، غير أن الكثير من جوانب هذه العلاقات ظل طي الكتمان إلى أن بدأت تتكشف في الآونة الأخيرة، والحقيقة لا نلوم على هذه الد... تقدر ما نلوم على السياسات العربية في تعاملها، وتعاطيه مع مثل هذا التواجد "الصهيوني" في منطقة تعتبر امتدادًا تاريخيًا وثقافيًا للعالم العربي الإسلامي.

عوامل ساعدت على التغلغل

وقد كانت هناك العديد من العوامل التي سهلت من مهمة إسرائيل في اختراق اقتصاديات مجموعة دول آسيا الوسطى، ونجمل هذه العوامل في:

- مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية، وترحيبها بالدور الصهيوني في آسيا الوسطى، وتدعيمه سياسيًا وماديًا؛ لأن هذا الدور يخدم مصالحها، في الهيمنة على المنطقة كخلفية من خلفيات الاستراتيجية الأمريكية الهادفة لمحاولة الهيمنة على العالم.

- عدم وجود عداء تاريخي بين إسرائيل ومنطقة آسيا الوسطى، ما يجعل إمكانات التعاون المشترك بين المنطقتين ممكنًا جدًا، ولا غبار عليه.

- غياب الدور العربي، والإسلامي عن المنطقة، ما جعلها فريسة سائغة للمستثمر والسياسي الصهيوني، خاصة أن هذا الغياب مازال مستمرًا وحتى الحضور هو باهت جدًا، كما أسلفنا.

- ضعف الهيكل الأمني والسياسي والاقتصادي للمنطقة، ما شكل الفرصة الذهبية السانحة أمام إسرائيل في زيادة تقاربها مع الدول، سواء من حيث التعاون العسكري أو الاستثمارات الاقتصادية، أو تزويدها بالمعونة الفنية التي هي في أمس الحاجة إليها، كما أن البعثات التدريبية يمكن أن تساهم في وجود صهيوني في المنطقة؛ لأن

استراتيجية التغلغل.. أوزبكستان نموذجًا

كما لاحظنا أن إسرائيل اهتمت منذ وقت مبكر باختراق دول آسيا الوسطى بأكملها، وكانت لديها استراتيجية متكاملة، لذلك تعتمد على التركيز في المرحلة الأولى على التغلغل الاقتصادي من خلال رجال الأعمال الصهاينة من شتى الجنسيات من جهة، وتقديم إسرائيل نفسها كوسيط نشيط لجذب رؤوس الأموال الغربية والأمريكية إلى تلك البلدان، وفتح أبواب واشنطن وغيرها من العواصم الغربية أمامها من جهة أخرى.

والتاريخ يثبت ذلك، فمثلاً: بعد أقل من ثلاثة أشهر على انهيار الاتحاد السوفيتي كانت إسرائيل قد نظمت في العاصمة الأوزبكية طشقند أول مؤتمر اقتصادي مشترك بينها وبين دول آسيا الوسطى في مارس ١٩٩٢؛ لبحث احتياجات تلك الدول من المشروعات والمساعدات الاقتصادية، والدور الذي يمكن أن تقوم به الدولة الصهيونية في تلبيتها، وخلال الشهور والأعوام التالية كانت هذه المشروعات قد بدأ يجري تنفيذها بالفعل، وبالنسبة لأوزبكستان، فقد قام رئيسها، إسلام كريموف، بزيارة إلى إسرائيل في أكتوبر عام ١٩٩٢، وقد تم الاتفاق على تطوير التعاون بين البلدين في شتى المجالات، وشملت المشروعات المشتركة في المجالات الحيوية التي ذكرناها سالفًا، وساهم فيها رجال الأعمال الجدد من يهود أوزبكستان.

وتم افتتاح فرع للوكالة اليهودية (سحتوت) في العاصمة الأوزبكية طشقند لتنظيم هجرة اليهود الأوزبك إلى إسرائيل، وكان عدد هؤلاء يبلغ نحو (١٢٠) ألفًا، وتم بالفعل تهجير أكثر من سبعين ألفًا منهم، كما تم افتتاح مركز ثقافي صهيوني في طشقند يعمل بنشاط على الترويج للثقافة والأفكار الصهيونية بين اليهود وغيرهم من مواطني أوزبكستان، فضلاً عن تعليم اللغة العبرية.

تأثير الثورات على التواجد الإسرائيلي

ومؤخرًا اندلعت موجة ثورات عربية أسقطت أنظمة، ومنها ما هو ما زال قائمًا في الشارع، ولا شك أن هذه الثورات بزخمها الموجود أثرت على السياسة الإسرائيلية على الأقل في الشرق الأوسط، ولكن هل يمكن لهذا التأثير أن يمتد إلى علاقات إسرائيل الدولية بالمناطق الأخرى البعيدة عن العالم العربي، ومنها علاقاتها بآسيا الوسطى.

أرى أن هذه الثورات ستؤثر على علاقات إسرائيل بآسيا الوسطى على الأقل على المستوى السياسي لانشغال إسرائيلي بقراءة جديدة لتاريخ المنطقة العربية بعد الثورات، وإسقاط أنظمة كانت حليفة لتل أبيب، وطالما مكنت لمشروعاتها على أرضها، ما يجعله تغض الطرف بعض الوقت عن منطقة كآسيا الوسطى ليس لها أهمية بالنسبة لإسرائيل كما هي المنطقة العربية، أما على الجانب الاقتصادي لا أظن ستؤثر مثل هذه الثورات على التواجد الاستثماري هناك لانفصال رجال الأعمال- نوعًا ما- عن الأجندة السياسية، وتغليب "البراجماتية" عن الإشكاليات السياسية.

لكن يمكن أن تتأثر العلاقات، بل وتنقطع أيضًا على كافة تنوعاتها السياسية والاقتصادية إذا اندلعت ثورات في منطقة آسيا الوسطى على أيدي الإسلاميين الذين تتفق أيديولوجياتهم جميعًا على كراهية إسرائيل، واعتبارها كيانًا غاصبًا يجب إبعاده من المنطقة، وهنا لا تستطيع إسرائيل فرض نفسها كعادتها حتى لو ساعدتها الإدارة الأمريكية؛ لأن السلطة وقتها ستكون مع الشعب الذي يدين أغلبيته بالإسلام.

وخلاصة القول: إنه لولا الغياب العربي البائن ما استطاع اللوبي الصهيوني أن يمد نفوذه في هذه المنطقة، ما يؤكد ضرورة التحرك على المستويين العربي والإسلامي لإنقاذ هذه المنطقة من تمدد "السرطان" الإسرائيلي الذي يتذرع بالعلاقات الاقتصادية.

هذه الدول تحتاج إلى متخصصين في الاقتصاد والقانون والإدارة المالية وغيرها من المجالات، ويمكن لهذه البعثات أن تكون خير سفير لدولة الكيان في منطقة القوقاز وآسيا الوسطى.

- التقارب الإسرائيلي ــ التركي الذي مهد الطريق لدخول تل أبيب بقوة إلى الساحة الآسيوية، خاصة أن أنقرة لديها علاقات قوية مع هذه الدول، إذ تقوم الدولة العبرية ببيع منتجاتها العسكرية التي يتم تصنيعها وتجميعها في تركيا إلى جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية السابقة ودول جنوب القوقاز (أذربيجان وجورجيا)، وكذلك أرمينيا.

وشكل هذا التقارب أيضًا التمهيد الأول الواضح والصريح لإسرائيل في تلك المنطقة، وخاصة في كازاخستان التي تمتلك ما يقارب ربع احتياطي العالم من اليورانيوم الخام، مما دفع إسرائيل إلى النظر لهذه الثروة على أنها من الثروات المهددة نوويًا في ظل وجود دول وتيارات إسلامية في تلك المنطقة، فسعت إسرائيل مباشرة إلى شراء مجمع لمعالجة اليورانيوم في كازاخستان، والذي يُعدّ من أكبر مجمعات اليورانيوم في العالم.

- الفراغ الذي أحدثه الانهيار المفاجئ للاتحاد السوفيتي، وسارعت إلى الاعتراف بدول آسيا الوسطى، وركزت خلال المرحلة الأولى من تاريخ علاقاتها بتلك الدول على الجانب الاقتصادي، وسعت إلى السيطرة على مقومات دول آسيا الوسطى الاقتصادية كمرحلة أولى، ثم ربط اقتصادياتها بالاقتصاد الإسرائيلي، مما يجعل انفصاله عنه صعبًا للغاية إن لم يكن مستحيلاً، لذلك لا توفر إسرائيل أي فرصة للالتفاف الاقتصادي على تلك الدول.

الحكايات الملحمية في آسيا الوسطى

لقد ارتبطت شعوب آسيا الوسطى الناطقة بالتركية "الأوزبك" الكازاخ الكاراكلباك، القرغيز التركمان بوحدة اللغة، والاتصال الموسع، والتداول الثقافي والعرقي والتطور التاريخي المتشابه، فالبدو ذوو الأصل التركي، أو اللغة التركية، انتشروا فوق منطقة واسعة من سهوب آسيا الوسطى، وكانوا يمتزجون بشكل مستمر من داخل اندماج القبائل المنفصلة بمجموعات وطنية أكبر، مشكلين اتحادات سياسية غير مستقرة وقصيرة الحياة، وفقًا للأنظمة القبلية والاقطاعية المبكرة، وهم غالبًا ما كانوا يمتصون المجموعات المتفرقة من القبائل الكبرى التي وصلت أسماؤها على أنها أسماء، أو أسماء عرفية انتشرت في المنطقة.

التدخل الواسع بين الشعوب التركية في مجال الفن الملحمي سببه العملية المستمرة لتفكك القبائل البدوية في آسيا الوسطى، واتحادها حول مركز ما معاصر ومستقر وفعال مدعم بتطور علاقات إقطاعية، وروابط ثقافية واقتصادية أقرب للدول الصاعدة في وقت لاحق.

حكاية "الباميش":

وهكذا وجدت الحكاية الملحمية "الباميش" في كامل المنطقة التي تقطنها الشعوب التركية اعتبارًا من الألتاي في آسيا الوسطى إلى الفولجا وجبال الآزرال من ناحية أولى، وحتى ما وراء القوقاز ولآسيا الصغرى من ناحية أخرى، وفي الوقت نفسه تعد واحدة من أقدم الحكايات الملحمية العظيمة لهذه الشعوب.

أجزاء الملحمة:

كملحمة شعرية عظيمة سجلت "الباميش" بأشكال أوزبكية متعددة أفضلها فنيًا نسخة المغنى الشعبي "فاضل أولدا شيف".

لذلك، فإنه من أجل مواجهة ذلك المخطط الصهيوني الخاص بالسيطرة على دول آسيا الوسطى وغيرها من بلدان العالم الإسلامي، ميتعين على الدول العربية مجتمعة إيجاد استراتيجية أمن قومي، أو مشروع قومي عربي، باعتبار أن وجود مثل ذلك المشروع الآن يمثل ضرورة وجود وبقاء.

فهذا التغلغل الصهيوني لا يقصد من علاقاته هذه نهب الثروات فقط، بل يسعى لقتل الهوية القومية والإسلامية في نفوس أبناء هذه الدول، ولابد للدور العربي أيضًا ألا يتوقف عند حد الحماسة والعاطفة فحسب، بل لابد أن تكون هناك تحركات مدروسة ومخططة لتوثيق العلاقات مع هذه الدول، وخاصة الاقتصادية والاستثمارية.

الأولى للناس ضد ظالميهم، وقد اكتسب أولاً ميزات الثائر، والانتقام لشعبه، واكتسب بعد ذلك ميزات الحاكم الديمقراطي الخيالي صديق أتباعه وحاميهم.

كتاب "جدى كوركوت":

التسجيل الأول الوحيد المدون عن الملاحم التركية في العصور الوسطى هو سلسلة الغز في القرن الخامس عشر المعروفة بـ"كتاب جدى كوكورت" يضم الكتاب مقدمة واثنتي عشرة حكاية ملحمية نثرية مع إدخالات شعرية، ولكل حكاية حبكتها الخاصة، لكن الشخصيات هي نفسها جزئيًا، الأبطال هم بكوات الغز، أتباع الحاكم البطولي للغز، والأعلى مقامًا بينهم وهو "كازان بيك"، ثم شخصية أخرى معروفة للجميع هي الجد كوركوت، وهو رجل مسن ذو لحية بيضاء، إنه المعلم الحكيم للخان، للبكوات، وللشعب بأكمله، يتخذ كوركوت دورًا في حدث الحكاية، لكنه هو أيضًا مؤلفها وراويها، وهو الذي يترنم بالأعمال البطولية الممجدة للخان ورفاقه، وفي المقدمة نجد عددًا من الأمثلة المنسوبة إلى كوركوت.

يوضح التراث الملحمي للشعوب التركية في آسيا الوسطى، وعلى نحو متنوع جميع المراحل المتعاقبة لتطور السرد الملحمي، كما تقدمه الحكاية الشعبية البطولية والقصائد البطولية التقليدية قبلية، أو إقطاعية كانت.

الروايات الشعبية تحل محل الملاحم البطولية:

في الشرق الأدني، حلت عمليات الروايات الشعبية المنتشرة جدًا في تركمانيا، أذربيجان وتركيا محل الملاحم البطولية القديمة، وهذه غالبًا ما تستمد موضوعاتها من حكاية قصيرة ومن موضوعات الحب الرومانسية، وجزئيًا من الحياة المنزلية، فتلك الموضوعات الخرافية والبطولية تراجعت لصالح الوجدانيات والمشاعر الإنسانية أمثال طاهر وزهرة، العاشق غريب، آسلي وكريم، غول وبلبل، وسواها، لكن ما تتميز به هذه الروايات الشعبية هي أنها تحكي على شكل نثر ممزوج بأغان ذات صفة غنائية تعبر عن مشاعر الشخصيات.

الجزء الأول من الباميش هو قصة خطبة بطولية، إذ يذهب البطل إلى بلاد الكالموك، حيث استقرت عائلة خطيبته، ويشارك في مباراة زفافية مع منافسه الكالموك في سباق الخيل والرماية والمصارعة، ويؤخذ الباميش في الجزء الثاني من الملحمة، سجينًا من قبل الكاملوك ويقضي سبع سنوات في زنزانة الشاه الكالموكي، وتقع ابنة الشاه في حب آلباميش وتحرره، وبعد أن تنقذه الأميرة يرجع إلى الوطن في اليوم الذي ستتزوّج فيه زوجته من المغتصب، فيقتل المُغتصب، ويسترد قوته وحقوقه الزوجية، وهذه الحبكة "عودة آلباميش يوم زفاف زوجته" شائعة في الملحمة والحكايات الشعبية، وتشابه كثيرًا من القصص.

وبشكل عام ومتشابه، فإن الحكايات الملحمية يقضي العديد من الأبطال للحكايات الملحمية البطولية في آسيا الوسطى، حكام المستقبل لشعوبهم، طفولتهم فواحدهم أما أن يولد لأب راع أو تتبناه عائلة ثم يكبرون ويرعون القطعان بأنفسهم كما أن صداقة ابن الخان مع الناس العاديين يجب توضيحها من حيث حبه لهم وعنايته بهم، فهذا يحدد الماهية الديمقراطية والأبوية لحكم "الملك الجيد"، والملحمة تريد أن تجد في البطل رجل الشعب، يشاركهم قدرتهم وحياتهم، كذلك يكون لنسب البطل صفة أسطورية أيضًا.

ملحمة "كودوغلو":

هذه الملحمة أو هذه الحكاية الملحمية لها أصولها التي تعود لأزمنة أكثر حداثة، لقد عرف بأشكال مختلفة غبر القوقاز في أذربيجان، أرمينيا، وجوجيا، وعند الأكراد، وفي بعض أ زاء القوقاز الشمالية، في الشرق الأدنى والأوسط، في تركيا ولإيران الشمالية جنوب أذربيجان وخراسان"، وفي آسيا الوسطى عند التركمانيين والأوزبكيين والكازاخيين والكارالبك والطاجاكيين وعرب آسيا الوسطى، فلا الحدود الوطنية والعرقية، ولا حتى الاختلافات في الدين واللغة كانت حاجزًا لانتشار هذه القصة، لقد أصبحت شخصية هذا البطل الذي ابتدعه التلقيد الملحمي بسبب الظلم الاقطاعي، تعبيرًا عن الاحتجاج

المراجع العربية

- ملاحم آسيا الوسطى الشفوية، ترجمة/ رباب ناصف، ونوراك تشادويك.
- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد.
- المعجم الوسيط.
- المرأة المسلمة في آسيا الوسطى، د/ نعمة على مرسي.
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير.
- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد.
- المنتظم في التاريخ، لابن الجوزي.
- فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية في آسيا الوسطى، د/ محمود أحمد محمد سيد قمر.
- موسوعة حضارة العالم لأحمد محمد عوف.
- أندريه كاراطائف مقدمة المكروديناميكا الاجتماعية. الدورات المئوية والتيارات الالفية ISBN 5-484-00559-0
- آسيا في التاريخ الحديث والمعاصر / رأفت غنيمي الشيخ, محمد رفعت عبد العزيز. القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, ١٩٩٧.
- تاريخ بخارى منذ أقدم العصور، أرمينوس فامبري.
- تاريخ بخاري، أبو بكر النرشخي.
- بلاد ما وراء النهر، الساداتي.
- مجلة المسلمون في الشرق السوفيتي، العدد ٤ : ١٥.

منهم إلى مناطق صينيّة بعيدة، لتبعثرهم وتنسيهم دينهم. عن مجلة الفكر الجديد، العددالخامس: ١٤٧، ١٥٣.

- مجلة الفكر الجديد، العدد الخامس، المسلمون في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) واتحاد الجمهوريات المستقلة: ١٤٧.
- مجلة التوحيد: العدد ٥ : ١٠١ (الاسلام في الاتحاد السوفيتي) الدكتورة س. أكينر.
- دولة مسكوفيا القديمة، وكانت تقتصر على امارة موسكو فقط. وتجدر الاشارة إلى أنّ مساحة الاتحادالسوفيتي المنحلّ ككل كانت تبلغ ٢٢٤٠٠٠٠٠ كم٢. ولم تكن الاراضي الروسية منها تتجاوز مليوني كيلو مترمربع، أي أنّ أكثر من عشرين مليون كم٢ هي أقاليم إسلامية أصلاً حين بدأ الروس غزوها منذ عام ١٥٥٢موإخضاعها للسيطرة الروسية ودمجها بأراضيها وإضاعة كيانات السكان المسلمين الدينيّة والقومية بقوّة السلاح والارهاب والابادة.
- إنّ هذه الاقاليم الاسلامية الواسعة ــ الجمهوريات المستقلة حديثاً ــ التي كانت تشكل جزءاً من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، لم تكن في الحقيقة غير مستعمرات روسية احتلت منذ عام ١٥٥٢م.
- المسلمون في الاتحاد السوفيتي، بينغسن ــ لمرسييه، تعريب الدكتور إحسان حقي: ٢٣.
- الكرياشن: تعني بالتترية (المُعمّد) وهم أحفاد إمارة قازان الذين ارتدّوا إلى المسيحيّة الارثوذوكسية على موجتين، في النصف الثاني من القرن السادس عشر والنصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويُسمّى الاوّلون «ستاروكرياشن» أو المرتدون القدماء ومايزالون مسيحيين حتى اليوم ويبلغ عددهم قرابة ١٠٠٠٠٠ نسمة، والاخيرون «نونوكرياشن» أو

- وطبقاً لاحصائية سنة ١٩٩١م المنشورة في مجلة آفاق الاسلام العدد الاول آذار ١٩٩٣م بلغ عدد السكان في تتارستان ٥٦٧٨٠٠٠ نسمة.
- مجلة التوحيد العدد ٥ موضوع الاسلام في الاتحاد السوفيتي، الدكتورة س . أكينر.
- نسبة إلى نهر الفولغا، وهو نهر في روسيا ٣٦٩٠ كم أطول نهر في اوربا ينبع في آسيا الوسطى (جبال ألتايي) ويمر في فولغو غراد ـ ستالين غراد سابقاً ـ واستراخان ويصب في بحر قزوين ـ محور حركة الملاحة فى روسيا ـ حيث تقع جمهورية التتر في المجرى الاوسط من نهر الفولغا ورافده نهر كاما.(المنجد في الاعلام).
- موسوعة المورد ٩ : ١٧٧.
- مجلة الفكر الجديد، العدد الخامس، المسلمون في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) واتحاد الجمهوريات المستقلّة: ١٤٦.
- التوحيد: العدد ٥ ، موضوع الاسلام في الاتحاد السوفيتي، س. اكينر: ١٠١.
- سينغيانغ: إحدى المقاطعات الواقعة في شمال غرب الصين، سكانها الاصليون كلهم مسلمون، يبلغ عددهم اليوم ما يقرب من ٨٠٧٥٠٠٠ نسمة، ومساحتها ١٦٤٦٨٠٠ كم٢، وعاصمتها أورستي. كانت أصلاً جزءاًمن تركستان المسلمة، وتسمّى أيضاً تركستان الصينية، احتلتها الصين بالقوة وتطلق عليها اليوم «مقاطعة يونان» لتنسيها أصلها. وكان أباطرة الصين ورؤساؤها يضطهدون مسلمي هذه المنطقة. غير أنّ أشدّ اضطهادحلّ بهم كان منذ بداية عهد ماوتسي تونغ تطبيقاً للعقيدة الشيوعية في محاربة الاسلام والقضاء عليه، وقدلجأت السلطات الشيوعية الصينية إلى جلب الملايين من الصينيين الشيوعيين أسكنتهم بينهم ونقلت الملايين

المرتدون الجدد الذين عاد معظمهم إلى الاسلام بعد عـــام١٩٠٥م ويقـــدّر عددهم اليوم حوالي ١٥٠٠٠٠ نسمة.

- المسلمون المنسيّون في الاتحاد السوفيتي، ألكسندر، لوميريـــية: ١٨.
- مجلة التوحيد، العدد ٥ : ١٠٥.
- ن. آشيرون، تطوّر الاسلام في الاتحاد السوفيتي: ٦٥ .
- المسلمون المنسيّون، ترجمة عبد القادر ظللي: ٣٣ .
- جريدة كيهان العربي: العدد ٢٨٠٤ ، تتارستان تتطلع إلى علاقات مساواة مع روسيا.